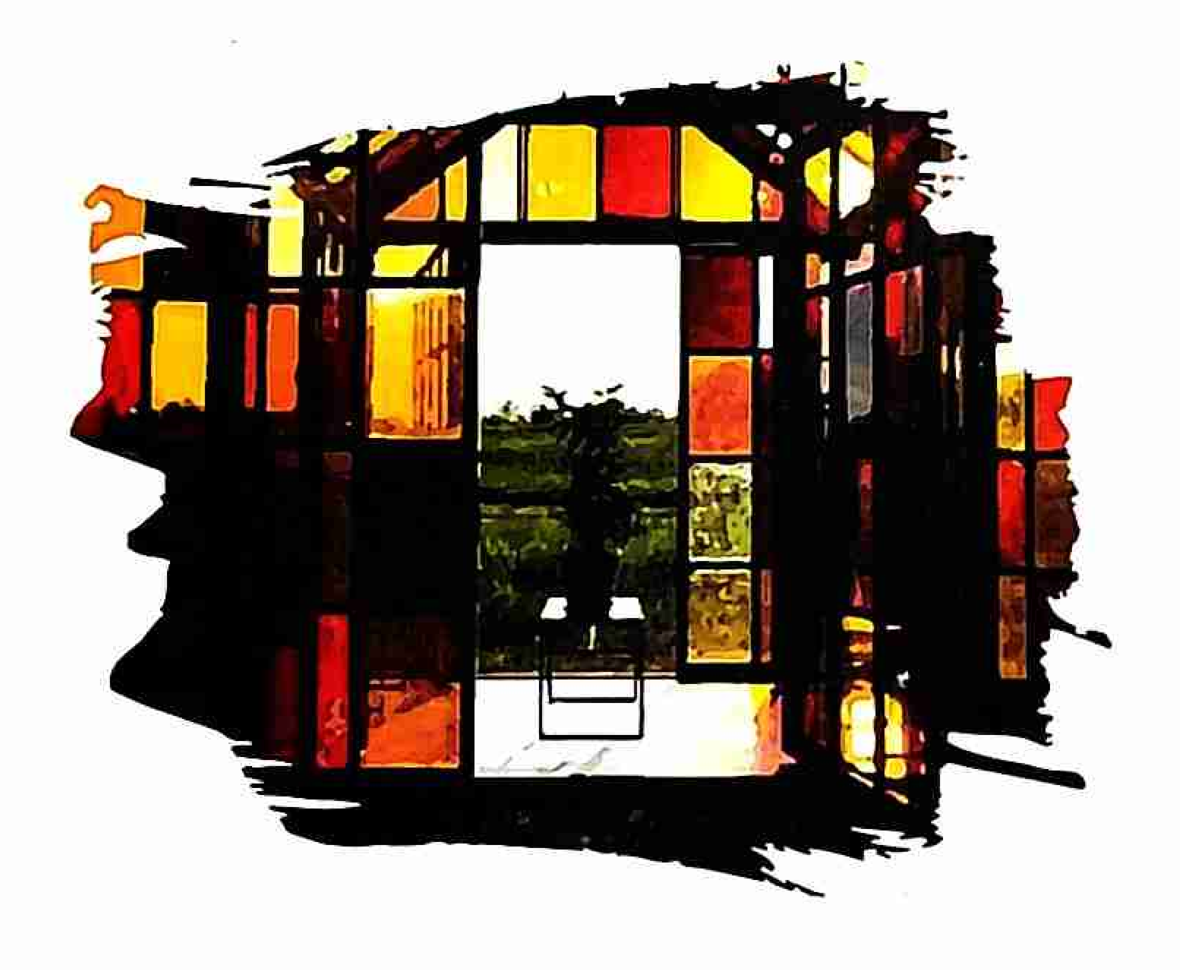
أ.د. عماد الدين خليل



أخطاء في حياتنا الإسلامية



أخطاء في
حياتنا الإسلامية

• الموضوع: دراسات إسلامية
• العنوان: أخطاء في حياتنا الإسلامية
• تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م
ISBN 978-614-415-307-9

ISBN 978-614-415-307-9
9 786144 153079

• الطباعة والتجليد: المطبعة العربية - بيروت
• الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
• القياس: 15×22 / عدد الصفحات: 128 / الوزن: 170 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

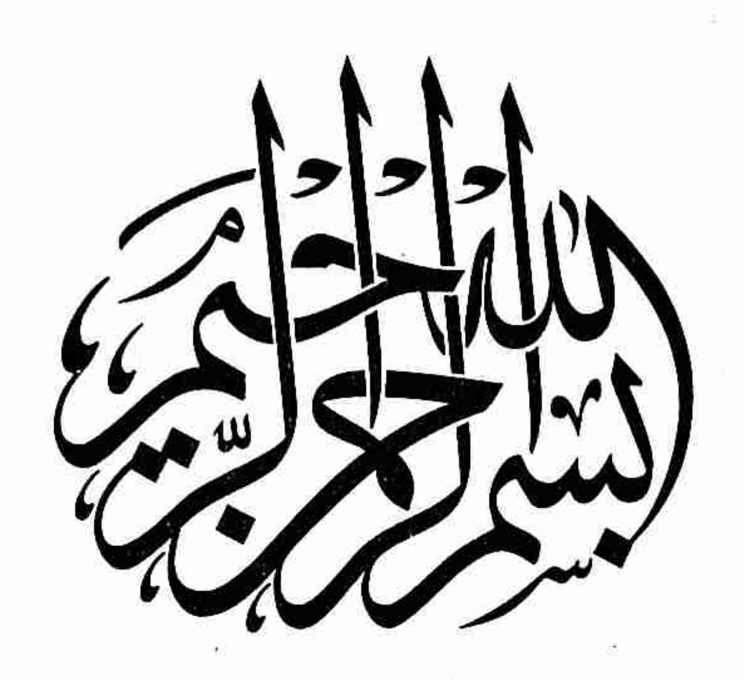
website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

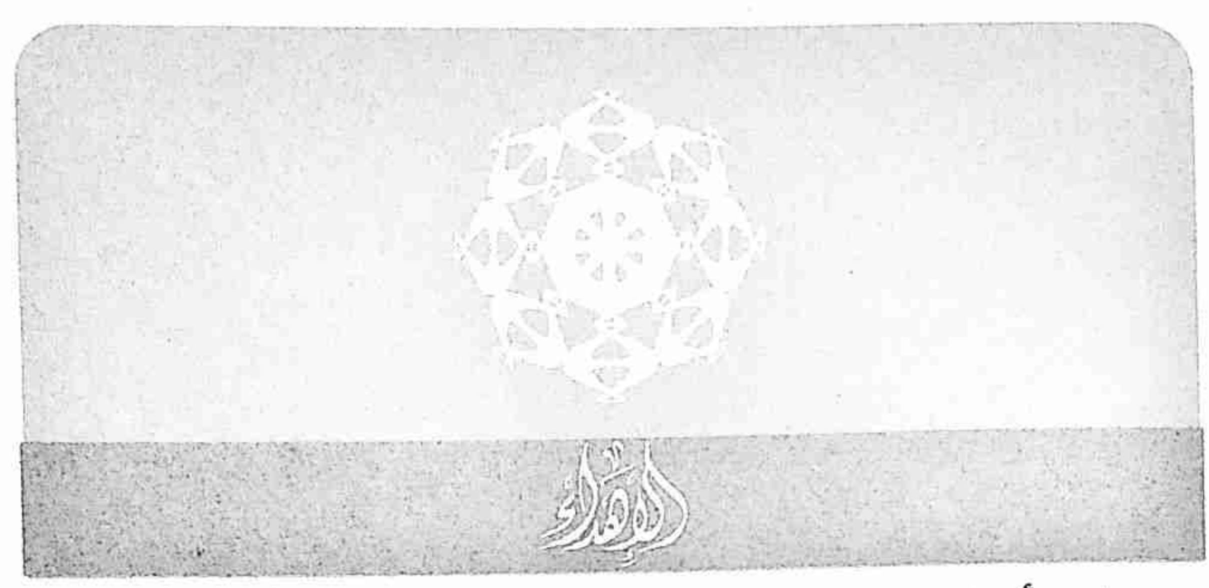
أ.د. عماد الدين خليل

أخطاء في حياتنا الإسلامية






بسم الله الرحمن الرحيم



إلى أجيال الصحوة الإسلامية، التي أطلت على أمتنا المنكودة منذ سبعينيات القرن الماضي... ولا تزال تتدفق عليها بالوعد بالخلاص...

إلى الشباب الذي يمضي لكي يكنس في طريقه كل هذه الأخطاء التي تراكمت عبر القرون... ويمارس بجهده وجهاده إعادة صناعة الحياة الإسلامية كما يريد لها الله ورسوله أن تكون... وليس كما يريده الآلهة والأرباب والطواغيت، الذين يسعون لاستعباد الشعوب...

أتقدّم بهذا الجهد المتواضع لعلّه يضيء لهم جانباً من الطريق...

المؤلف



يقول المثل: «**إذا كان بيتك من زجاج فلا ترم الناس بالحجارة**»...

ونحن الذين دعانا الله ورسوله ﷺ لأن نسكن بيتاً من ذهب وماس، وتحوّلنا بسوء أفعالنا إلى بيوت من زجاج، كثيرة الهشاشة، سريعة الكسر، نريد أن نشهر الحرب على الآخر، ونقذف بيوته بالحجارة، معتقدين أننا سنخرج من المعركة منتصرين!! رغم أن الآخر يصيبنا يومياً بأكثر من مقتل، ويخترق علينا أمننا الذاتي في بيوتنا، وبسهولة بالغة، لأنها من زجاج!!

المعادلة غير متكافئة على الإطلاق، وليس الأمر بالأماني والأحلام، فإن من يعمل سوءاً يجز به كما أراد كتاب الله ان يعلّمنا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

لقد كانت بيوتنا يوماً من أكثر البيوت إحكاماً وتناظراً وجمالاً... ولكن سلوكنا... نفوسنا... انفصالنا عن مطالب عقيدتنا... قادنا إلى هذا الذي نعاني منه الآن... فلا بدّ ـ إذن ـ من تطهير بيوتنا وتحصينها... وتجميلها، قبل أن نبدأ بدعوة الآخرين...

إن أية مقارنة بين صورة الحياة الإسلامية كما يريدها الله

ورسوله ﷺ، وكما تشكلت بالفعل في مراحل شتى من التاريخ، وبين صورة هذه الحياة في واقعنا الراهن؛ لن تكون في صالحنا على الإطلاق... ما لم نتداع لتشخيص مواطن الداء والبحث عما يناسبها من الدواء... بل من المداخلة الجراحية إذا اقتضى الأمر... من أجل عودة الوفاق بين العقيدة والسلوك...

حالات منحرفة لا تعدّ ولا تحصى، ولا تطرح لأوّل مرة، فلقد عالجها كثيرون غيري (الغزالي، القرضاوي، السيسي، الهاشمي... وغيرهم)... إنما هي محاولة للاسترجاع والتذكير عملاً بقول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]... وبقول رسوله ﷺ: **«الدين النصيحة...»**، و**«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم...»**...

إن المتحدث في هذا الكتاب كقرّائه سواء بسواء في كثرة ممارسته الأخطاء... وبالتالي فهي المحاولة الجادّة للتعاون، والإمساك بأيدي بعضنا بعضاً من أجل الارتفاع إلى الأعلى، كي لا نموت غرقاً... ولنتذكر دائماً أن التذكير قد يأتي من الأدنى إلى الأعلى، وليس العكس بالضرورة... فكل بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون، كما يعلّمنا رسول الله ﷺ.

إن هندسة هذا الدين لحياتنا الإسلامية كما يريدها الله ورسوله تبدأ بالتغيير الذاتي (وهو ما سماه الرسول ﷺ **بالجهاد**

الأكبر)... ثم تمضي إلى البيت، فالمحلّة، فالحيّ، فالمدينة، فالدولة، فالعالم... وهي ترسم السقف الأعلى الذي تتضاءل عنده كل المذاهب والعقائد والأديان المحرّفة... والمطلوب منا كمسلمين أن نبذل أقصى درجات الجهد لتحقيق المقاربة بين الواقع والسقف العالي.... خطوة خطوة... وبالصدق والإخلاص وتنقية النيّات؛ يمكن أن نمضي إلى الهدف... وما لا يدرَك كله لا يُترك جلّه بطبيعة الحال...

وتظل الحياة الدنيا بفطرتها، ويظل الإنسان بجبلّته... قابلاً للأخطاء... مستعداً للعثرات... ماضياً في الوقت نفسه لتجاوز الأخطاء والعثرات... وللتحقق بالتوحّد المرتجى بين العقيدة والسلوك.

هذا الكتاب الصغير هو رحلة مع الأخطاء ـ إذا صحّ التعبير ـ مع أخطائنا نحن المسلمين، مستمد من خبرة مؤلفه المحدودة، ومعايشته ومشاهداته... بل من أخطائه الكثيرة هو أيضاً...

محاولة للنقد الذاتي من أجل تعديل الوقفة، والتوحّد بين القول والعمل... الفكر والممارسة... ومجابهة سلطة الزمن... إنها وقفة عند إشكالية الفصام النكد بين العقيدة والسلوك، والذي راح يشتكي منه الجميع، ويتخذه الخصوم بوابة للطعن في الإسلام نفسه... فيما يذكرني بأمسية جدال طويل أقف فيها وحيداً لتأكيد أن أكثرية المصلين متوحدون في سلوكهم، وأضرب لذلك مثلاً جامع الحي كعيّنة صالحة للاختبار... فإذا بأكثرية الحضور يأتون

بالشواهد المضادة على أن معظم المصلين ممن لا يُطمأن إليهم بسبب ازدواجية سلوكهم، وعدم تأثير العبادة في تكوينهم الأخلاقي، بل وحتى النفسي.

لا بل أن أحد الجيران يذهب في رد فعله بعيداً فيقول: إن هذا الدين أكبر بكثير من العرب الذين ينتمون إليه، وإنهم ما كانوا أهلاً لأن يسموا مسلمين... وإن أمة حية كاليابانيين أو الألمان أقرب بكثير إلى ما أراده هذا الدين بهندسته المدهشة والمحكمة، وبتعاليمه التي تفجّر القدرات الإبداعية في المنتمين إليه!!

قُسّم الكتاب إلى ثلاثة سياقات أساسية: السياق التعبّدي، والسياق الاجتماعي، والسياق الفكري الثقافي الدعوي...

ومحاولة وضع اليد على الأخطاء كافة في هذه السياقات الثلاثة؛ أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً، ولهذا تم الاكتفاء بنماذج فحسب من تلك الأخطاء في كل سياق... وترك الباب مفتوحاً لكي يشارك القرّاء أنفسهم بعملية الكشف عن المزيد من الأخطاء...

والغرض ـ وحاشا لله ـ ليس الرغبة في نشر غسيلنا أمام القاصي والداني، ولا التلذّذ بجلد أنفسنا فيما يعكس حالة قد تكون مَرَضية لا تستقيم والبحث الجاد... وإنما هي محاولة لوضع اليد على مكامن الخطأ من أجل تداركه، والتأشير على مظانّ الانحراف من أجل العودة إلى الصراط...

إنها محاولة متواضعة جداً سبقني إليها البعض، وقد تغري البعض الآخر بإضافة حلقات أخرى... وإنما الأعمال بالنيات، وإنما

لكل امرئ ما نوى... كما يعلّمنا رسولنا عليه أفضل الصلاة والسلام...

ونحن ـ مرة أخرى ـ لا نستطيع أن نخاطب الآخر، أو نعبر إليه، أو نحاوره، أو ندعوه، أو نهاجمه دفاعاً عن أنفسنا؛ ما لم ننظف بيتنا الإسلامي جيداً، ونسدّ ثغراته، ونحصّنه ضد أية محاولة للاختراق...

وإلى الله وحده نتوجه بالكلمات والأعمال

الموصل في ٢٠١٣/٨/٣م



١

أخطاء في سلوكنا التعبدي

سنكون مخطئين لو حمّلنا السلطات الجائرة وحدها، في ديار الإسلام، ما يعانيه «**المسجد**» من متاعب وآلام في حياتنا الراهنة...

فإن ما يمارسه «المسلم» نفسه داخل المسجد، من أخطاء وانحرافات، والصيغ الخاطئة، أو الملتوية، التي ينفذ بواسطتها مطالبه ومهماته، والهدر المحزن للفرص المفتوحة التي تتيحها هذه المؤسسة الفعالة... لا يقل سوءاً عما فعله الخصوم القادمون من الخارج، أو السلطات الجائرة والنخب العلمانية المتسلطة في الداخل...

سيل من المفردات الخاطئة التي يشهدها (**المسجد**) صباح مساء على أيدي حشود المصلّين، الذين يبدو أنهم لم يهضموا جيداً تعاليم رسول الله ﷺ أو يتمثلوها. بل إنهم ـ أحياناً ـ يبحرون في مواجهتها، وعلى النقيض منها، وكأنهم لا يعرفون عنها شيئاً.

إن آداب الصلاة، وسلوك المصلين داخل المسجد، والمقاصد العليا لهذه الممارسة التعبدية التي فرضت على المسلمين كتاباً موقوتاً، تعاني الكثير من الأذى والتحريف وسوء الفهم، الأمر الذي يلحق بالأداء ضرراً كبيراً ويحدّ من فعالية المسجد في تكوين

الجماعة المؤمنة، المتوادّة، المتراحمة، المنيبة إلى الله، الداعية لمنهجه، القديرة على إحقاق الحق وإنكار المنكر، الجديرة بأن تكون مرآة صادقة للمجتمع الذي يتوخاه هذا الدين.

وبدءاً من ضرورات النظافة الجسدية، والتزين عند كل صلاة، مروراً بالتمحّض الروحي لله، والطاعة المذعنة لرسوله ﷺ، وتعزيز وحدة الجماعة، وتكافلها، والتحامها... وصولاً إلى تحويل الصلاة إلى لحظة توتّر روحي مشحون، يمكّن المسلم، لحظة بعد أخرى، من فك ارتباطه بمغريات الحياة الدنيا، وضغوطها التي لا ترحم، وبدء رحلة الصعود والتسامي إلى فوق، عبر محطات الإيمان والتقوى والإحسان، حيث يجد المسلم نفسه، بإحساسه المعبّأ بقوة الإيمان، قبالة الله جلّ في علاه.

ما الذي يحدث إزاء هذا كلّه؟

قذارة العديد من المصلّين، وسوء منظرهم... التضحّل الروحي وتحول الأداء إلى حالة ميكانيكية صرفة لا نبض فيها... المخالفة الصريحة أو الملتوية للمفردات التي علمنا إياها رسول الله ﷺ... التوتر والكراهية والشحناء بين بعض المصلين وبعضهم الآخر... الكبر والاستعلاء الذي يجابه بالمقت والنميمة... الجدل الذي يتجاوز حدوده المباحة إلى محاولة لتأكيد الذات على حساب الآخر، وإلحاق المزيد من التشرذم في صفوف الجماعة... سوء التأدب مع جلال الله ﷻ حيث يمارس المصلي عبر الركعتين أو الثلاث أو الأربع، عشرات الحركات باليد والقدم والعين، فيما

لا يستطيع أن يمارس عشر معشاره وهو يقف أمام مسؤول كبير أو بين يدي مدير عام!

ليس هذا فحسب، وإنما هنالك ما هو أمرّ وأنكى: تحويل المسجد، من خلال (مكبر الصوت) إلى بؤرة لإلحاق الأذى بالناس، فيما هو نقيض لإماطة الأذى التي أمرنا رسول الله ﷺ باحترامها وتنفيذها.

شهية لا ارتواء لها لتلاوة القرآن الكريم عبر مكبرات الصوت المفتوحة على مداها، وبأصوات لا تسرّ السامعين، ولا تستثير حسّهم الإيماني، أو تقرّبهم خطوة واحدة من كتاب الله... ثم أي مردود هذا لتلاوة القرآن عبر مكبرات الصوت، والناس خارج المسجد ما بين منشغل بعمل، أو منهمك في حديث، أو منكبّ على كتاب، ناهيك عن المرضى والنائمين والعاكفين على تحضير دروسهم؟

ومع تلاوة القرآن، بالأصوات إياها، منظومة من المدائح النبوية، وأبيات الشعر، والتأوّهات الوجدانية، تنقلها مكبرات الصوت، عبر البيوت المحيطة بالمسجد، فتخترق على الناس أمنهم وراحتهم وهدوءهم، وتدفع ضعاف الإيمان منهم دفعاً إلى إدانة المسجد، والنفرة منه، والذهاب إلى الطرف النقيض الآخر...

ألم يفكر هؤلاء المرتّلون، لحظة، في أنه ليس ثمة مردود إيجابي لممارستهم تلك، وأنهم إذا أرادوا أن يتقربوا أكثر إلى الله، فإن بمقدورهم أن يتدبروا آيات كتابه المعجز بينهم وبين أنفسهم، هذا إلى أن الممارسة الخاطئة هذه تمنع المصلّين أنفسهم، الذين

يجدونها فرصة مواتية قبيل رفع الآذان أو إقامة الصلاة، لتأدية المزيد من النوافل والسنن، أو استرجاع مقاطع مما حفظوه من كتاب الله... فها هي ذي الأصوات الحادة، التي يزيدها مكبر الصوت قدرة على الاختراق، تربكهم وتصدّهم عن التمحض لله وتحفيز الذاكرة على استعادة ما حفظته...

والذي يحدث في المساجد التي لا إمام فيها، لا يقل سوءاً ومخالفة لتعاليم رسول الله ﷺ... ولطالما وجد المصلّون أنفسهم قبالة صراع معلن أو صامت، بين عدد منهم يتنازعون أيهم يستأثر بالإمامة، بغضّ النظر عن كونه أقرأهم لكتاب الله، أو أعلمهم بشروط التلاوة، أو أعذبهم صوتاً...

ها هنا يجد المسلم ذو الحسّ المرهف نفسه في دائرة العذاب؛ وهو يرغم على الوقوف خلف إمام لا يملك الحدّ الأدنى من عذوبة الصوت وسلامة الأداء...

وثمة ثالثة الأثافي... أولئك الأئمة الذين يملكون شهية لإطالة الصلاة، ومن ورائهم المرضى والشيوخ، يتلوّون ألماً وهم ينتظرون لحظة الفراغ من الصلاة لكفكفة أوجاعهم وآلامهم، التي زادها أواراً وقوفهم المتطاول وراء الإمام إياه... بينما رسول الله ﷺ يطلب منا أن نصلّي ـ إذا أممنا الآخرين ـ صلاة أضعفنا!!

فإذا عدنا إلى جموع المصلّين، مرة أخرى، وألقينا عليهم نظرةً عجلى وهم يدخلون المسجد، ويمارسون تعبّدهم فيه، أو وهم يغادرونه إلى دورهم وأعمالهم، وجدنا أنفسنا قبالة جملة أخرى من الأخطاء...

بعض المصلّين يدخل مسرعاً فيتخطى رقاب الآخرين، ويفك صفوفهم لكي يحظى بمكان في الصفّ الأوّل... آخرون يؤدّون سننهم في آخر مكان من المسجد فيقطعون الطريق على إخوانهم ويرغمونهم على الانتظار، ريثما ينتهون، وقد يضيّع عليهم هذا فرصتهم في أداء السنة المؤكدة...

فئة أخرى تتحلق مع بعضها وتدير الأحاديث في شؤون شتى، بعضها مما يتعلق بالدين، ومعظمها مما لا علاقة له به من قريب أو بعيد... وقد يوغل أحدهم في شتيمة هذا وغيبة ذاك... وقد يسود التوتّر بين رجلين أو أكثر، لسبب من أسباب الدنيا، فتتبادل الكلمات الجارحة، وتلقى التعابير الفاحشة؛ دون أي اعتبار للمناسبة والمكان.

فئة أخرى تجيء مبكرة، فتنقر ركعتي تحية المسجد نقراً، ثم تجلس تتثاءب، وتتمطى بانتظار لحظة الإقامة التي قد تطول، دون أن تفكر في أن هذا الوقت المستقطع، فرصة ذهبية للمزيد من الركعات تقرباً إلى الله، وإغناء للرصيد المدخر ليوم الحساب... ولم يخطر على بال أحدهم أن رسول الله ﷺ كان يصلي ويصلي حتى تتورم قدماه!

حتى إذا نهض المصلّون، لكي يقفوا وراء الإمام، اصطفوا خلفه في خطوط معوجّة، وكأنهم لا يعرفون شيئاً اسمه النظام، أو يسمعوا حديث رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج»**... ولولا تدارك الأمر بشدّ الخيوط المستقيمة عبر فرش المساجد، لفقدت الصلاة الإسلامية واحدة من أبدع مفرداتها، تلك التي أثارت دهشة السائحين من خارج ديار الإسلام،

ودفعتهم، مع عوامل أخرى، إلى الانتماء لهذا الدين.

وفي هذا السياق ثمة من لا يصبر على ركوع الإمام وسجوده وقيامه، فيستعجل الحركة، وقد يسبقه، متجاوزاً تحذير رسول الله ﷺ من أن عملاً كهذا قد يلحق بصاحبه سوء المنقلب!

وثمة من الشباب الجدد مَنْ فهمَ الصلاة كما لو أن شروطها تتمركز في مسألة واحدة هي أن يلصقوا الأقدام بالأقدام، بل أن يضعوها فوق بعضها البعض، إذا اقتضى الأمر، وأن يفتحوا سيقانهم على مداها بحثاً عن أقدام الآخرين لكي يريحوا عليها!!

فإذا اجتزنا المظهر إلى المخبر، وهي مسألة لا نستطيع أن نمسك بها إلّا من خلال التجربة الذاتية لكل واحد منا... وهي تجربة مترعة بالشروخ والأخطاء، التي تتطلّب رياضة شاقة وجهداً صعباً من أجل الاقتراب بالصلاة ـ التي هي عماد الدين ـ من سوّيتها المطلوبة...

إذا عبرنا الجسد إلى العقل والروح، فإننا سنجد أنفسنا قبالة منظومة من «الانحرافات»، والشرود، وعدم التدبّر في مغزى المفردات والتعابير والأدعية والآيات؛ فيما يتضاءل معه النبض الإيماني، الذي يفترض أن تستجيشه لحظات الصلاة المشحونة...

والأنكى من هذا، توظيف الصلاة نفسها لاسترجاع المشاكل اليومية، وإعمال الذهن لإيجاد الحلول لها، بل قد يبلغ الأمر بالبعض إلى أن يجري عمليات حسابية من أنواع شتى، للوصول إلى الأرقام الدقيقة للمصروف اليومي، ولحسابات الدائن والمدين!

لا بأس! فكلّ ابن آدم خطّاء، ولن يكون بمقدور المرء أن يبلغ

حافات الكمال إلّا ببذل المشقة والأخذ بالعزيمة... ولكن كم من المصلّين، حاول أو يحاول التحقق بهذا الهدف العزيز، وتحويل الصلاة ـ بالتالي ـ إلى فرصة حقيقية للتقرّب إلى الله، ولتوظيف زمنها كلّه من أجل إغناء الرصيد في ضوء حديث رسول الله ﷺ من أن المرء ليس له من صلاته إلّا ما وعى...

فإذا قُضيت الصلاة، وانتشر المصلّون في الأرض، يبتغون فضلاً من الله، ويمارسون أعمالهم اليومية... فهل سيكون لصلاتهم تأثير إيجابي فعّال في مفردات سلوكهم اليومي؛ وهم يبيعون ويشترون ويتعاملون ويكسبون، ويلتقي بعضهم بعضاً في سياق هذه المصلحة أو تلك؟! أم أن روحاً شيطانياً خبيثاً يقيم بين تعبّدهم وتعاملهم جداراً منظوراً أو غير منظور، ويجعل الحياة الإسلامية، في مفرداتها العملية والسلوكية، لا تعكس إلا بمقدار محدود تأثير العبادة على الحياة؟

أغلب الظن أنه كذلك، رغم استدعاء التحفظ المعروف بوجود فئة من المسلمين ـ بكل تأكيد ـ تعكس حالة صادقة بين القطبين، فتضرب مثلاً عملياً على دور العبادة في آداب التعامل والسلوك.

فلماذا نعطي خصوم هذا الدين السلاح، الذي يشهرونه في وجوهنا، كلما دعوناهم إلى الالتزام بالصلاة، قائلين: لقد خبرنا المصلّين جيداً... والمهم هو سلامة التعامل ونظافة القلب!

أفليس الدين المعاملة، كما يعلمنا رسول الله؟ أو ليس الذين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر لا يزدادون من الله إلّا بعداً، كما يحدّثنا رسول الله نفسه عليه أفضل الصلاة والسلام؟!

لا بل إن الفصام النكد بين مطالب الصلاة وسلوك المسلم، قد يبدأ لدى البعض منذ اللحظات الأولى، لكي ما يلبث أن يمضي فيشطر بسكينه الحادة بين العبادة والسلوك...

فبدءاً بالوضوء الذي هو الحلقة الأولى من مطالب الصلاة، يصدر الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) أمره بإسباغ الوضوء والتخليل بين أصابع اليدين والقدمين، وتنظيف الفم والأسنان بالسواك، وتخليص الأنف من البقايا العالقة... والتحذير من الإتيان إلى المسجد وقد تناول الإنسان فوماً أو بصلاً...

بل إن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يمضيان إلى أبعد من هذا، فيأمران بالتزين عند كل مسجد، ويستنكران تحريم الزينة على أناس يذهبون للمساجد لأداء الصلاة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١] ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]...

ورغم هذه الأوامر والتوجيهات كلها؛ فإن المصلّين قد يُصدمون بنماذج من الناس لا تعرف كيف تتوضأ... وتتنظف... وتتزين... فإذا بهم يأتون إلى المساجد وروائح أفواههم لا تطاق... ونتن أرجلهم يكتم أنفاس المصلين وراءهم... وسوء منظرهم يدفع إلى التقزّز... رغم أن الماء هو أرخص شيء في هذه الحياة... فلو أنهم أنصتوا جيداً لتعاليم رسول الله ﷺ في مسألة إسباغ

الوضوء... وكلفوا أنفسهم قدراً أكبر من الجهد... لما حدث هذا الذي تشهده مساجدنا صباح مساء...

بل إن بعض المتوضئين يسرعون في أداء مهمتهم، ويدخلون المسجد لكي يقفوا إلى جوار إخوانهم المصلّين... وهناك تبدأ عملية التنظيف الحقيقية للأنوف والآذان... لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء إخراجها خلال الوضوء... وقبالة الماء الجاري القدير على تطهير كل شيء!!

ويرتبط بهذه الخطيئة جملة من الممارسات المنفّرة، كأن يأتي عمال البناء والقار... بل ربما عمال تنظيف خزانات المراحيض، بملابسهم المترعة بالأوساخ... وروائحهم التي لا تطاق، فيرصّوا أنفسهم إلى جوار إخوانهم المساكين!!

بل إن بعض مرتادي الجوامع لا يعرفون كيف يتغوطون (!!) ولأقلها بصراحة... فيتركون آثارهم في مرافق الجامع، فيما يؤذي كل الذين يجيئون بعدهم لقضاء حاجاتهم...

وبعضهم الآخر يأتي بجوارب لم يمسها الماء منذ أسابيع... فلنتصور معاناة أولئك الذين يحشرون رؤوسهم عند كل سجود قريباً من هذه الأقدام، التي تسح نتناً وتكتم الأنفاس؟!

فلو أننا تمعّنّا في جملة التوجيهات القرآنية والنبوية بخصوص الصلاة في مقدّماتها ومعطياتها ونتائجها؛ لوجدنا هذا الدين قد رسم صورة لهذه العبادة المركزية في الإسلام، تتّسم بأقصى درجات الوضاءة والنظافة والطهر والتزين والجمال... ولكن!!

من أجل ذلك كانت الصلاة الإسلامية بصيغتها المثلى نقطة جذب ودهشة وانبهار، انتابت كل أولئك الغربيين، الذين وقفوا يعاينون المصلّين وهم يؤدون هذه العبادة المدهشة حقاً بأجسادهم وعقولهم وأرواحهم... عبر حركات توافقية مرسومة بعناية... فما كان منهم إلا أن أعجبوا بدين هذه عبادته، وانتموا إليه بعشق... ومارسوا صلاته بالصيغة التي أمر بها رسول الله ﷺ، فوجدوا في ذلك متعة روحية لا تعدلها متع الأرض كلها...

هنالك إلى جانب هذا كله جملة أخرى من الأخطاء التي نمارسها في مساجدنا صباح مساء... ومن بينها تدفّق الصبية الصغار والأطفال والمجانين والمتخلفين عقلياً على باحات المساجد... ناقلين معهم قذاراتهم وصخبهم وحركاتهم التي لا تكف ولا تهدأ، فيما يحيل صلاة أولئك الواقفين إزاءهم إلى قلق وتوتر، يخرجانهم عما تتطلبه الصلاة من سكينة وخشوع...

وأذكر أني مرة وأنا أتهيأ لصلاة العصر في أحد مساجد الموصل، فإذا بطفل يقف إلى جواري، فأمسكته برفق ومحبة وحوّلته إلى الشخص الذي يقف بعده... فإذا بهذا الشخص تكسو ملامحه موجة من الانفعال والغضب، وينظر إليّ نظرة مترعة بالحقد الأسود... كيف تجرأت على تحويل ابنه من جواري، ويعيده ثانية إلى جانبي، فما كان مني إلّا أن أغادر الصف، وأبحث عن مكان آخر...

وبالمناسبة فإن هناك العديد ممن لا تفوتهم صلاة الجماعة في المسجد، لكنك تحاول أن تبحث عن ذرة من لطف، أو نقطة من رحمة في ملامح وجوههم؛ فلا تكاد تعثر عليها... وعندما

تسلّم على أحدهم فكأنك تنحره بالسكين، فإذا به يجيبك باقتضاب شديد وملامح الغضب تكسو وجهه... لماذا؟! وقد علمنا رسول الله ﷺ أن تبسّمنا في وجه أخينا صدقة، وأن الكلمة الطيبة صدقة... بل إن كتاب الله يأمرنا إذا حُيِّينا بتحية أن نرد عليها بأحسن منها أو مثلها على الأقل ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]...

ماذا علينا لو جعلنا حياتنا كلها، بدءاً من المسجد، وانتهاء بالحياة في آفاقها كافة... مترعة بالمحبة والبشاشة وإفشاء السلام الذي أمر به رسول الله ﷺ؟!

وللأسف الشديد، يبدو أن البعض من المسلمين قد آثروا أن يتركوا هاتين الخصيصتين للغربيين الكفرة، الذين ارتسمت على وجوههم البسمة الحانية، وعلقت بشفاههم الكلمة الطيبة...

❁ ❁ ❁

هذا إلى أن المسجد الذي يمكن أن يكون فرصة رائعة للأنشطة الفكرية والدعوية، ولإقامة الدروس وإلقاء المحاضرات وعقد الندوات، وتأكيد مفاهيم التكافل الاجتماعي، لم يوظف وفق طاقته القصوى في هذه السياقات... رغم أن هذا الخلل قد تمّ تداركه عبر العقود الأخيرة لحسن الحظ، وتحولت معظم المساجد في ديارنا إلى خلايا نحل عاملة لتأدية هذه المهمات... وتخريج الأجيال المؤمنة، والمتفقهة، والقديرة على المضيّ في نشاطها الدعوي إلى أبعد الآفاق...

أما في العبادات الإسلامية الأخرى كالحج، والصيام، والزكاة... فهنالك أيضاً أكداس من الأخطاء، جنباً إلى جنب ـ بطبيعة الحال ـ مع الغالبية العظمى التي تؤديها وفق صيغتها المثلى بفضل الله ﷻ...

التدافع في مواسم **الحج**... حلقات الإنشاد والخطب المرتفعة هنا وهناك... تضييق الخناق على ممرات الطواف حول الكعبة من قبل المصلّين الذين يجدون أجرهم في الصلاة قريباً من الحجر الأسود... الانبجاسات البشرية المندفعة بعنف لتقبيل الحجر الأسود... رمي القاذورات والأوساخ كيفما اتفق... ثم التشاجر والشحناء بين هذا الرجل وذاك، وهذه الفئة أو تلك، دون أن ينتبهوا إلى الأمر القرآني الحاسم: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فلو أن مواسم الحج طهرت من هذه الأخطاء لأصبحت هذه العبادة المتميزة كما أراد لها الله ورسوله أن تكون... ولكن...

أما في **الصيام**، فهنالك غياب الوعي بمطالب هذا الشهر العظيم لدى كثير من الصائمين... وليس أقلّها هذا التكديس المبالغ فيه من الأطعمة لدى ساعة الإفطار، بحيث يغادر الإنسان المائدة وهو في أقصى حالات التوتر، والشبع الزائد، والإعياء... وما هكذا أريد لشهر الصوم أن يكون... وهنالك حلقات كثيرة من الشباب الذين يجدون، في أمسيات هذا الشهر فرصتهم للعب والترويح عن النفس، وترك الفرصة الذهبية لقيام الليالي وكسب

المزيد من الأجر الذي يبلغ في العشر الأواخر ما يعادل عمر الإنسان كلّه!!

وأما **الزكاة**، فهي على التزام معظم المسلمين بدفعها، وبالنسبة المحددة لها، فيما يسدّ إلى حدّ كبير حاجات أولئك الفقراء المتضورين جوعاً... فإن ثمة عدداً من الأخطاء بخصوصها، لاسيما في توزيعها بشكل ارتجالي؛ قد يكدّسها في جانب ويحرم منها في الجانب الآخر من هم أكثر حاجةً إليها... والأَولى وقد تشكلت في ديارنا الإسلامية لحسن الحظ، جمعيات خيرية عديدة، أن تعطى لهذه الجمعيات التي ترتب قوائم بالمستحقين بعد الفحص والتدقيق... وتوزع الزكوات عليهم شهراً بشهر...

بإيجاز شديد، فإن أخطاءنا التعبدية كثيرة، ولكنها لا تكاد تقارن ـ إذا أردنا ـ الحق بالمساحات البيضاء المشعة التي تمارس من خلالها عباداتنا بأقصى درجات الالتزام... والحمد لله... وما هذه التأشيرات السلبية إلا محاولة متواضعة لحصر نقاط السلب في عباداتنا من أجل تضييق الخناق عليها واستئصالها من حياتنا... لاسيما ونحن نعيش عصر الصحوة الإسلامية، والإعلام الفضائي الفاعل، الذي يمكن أن يمارس مهمته في هذا المجال وصولاً إلى اليوم الذي سيتحقق فيه التطابق المأمول بين العبادة والسلوك... وحينذاك يمكن أن نتقدم للآخر من غير المسلمين بالصورة الأكثر مقاربة لما أراد هذا الدين أن يحققه في واقع الحياة... فنكون بمفردات السلوك الوضيء،

المتوحد، أكثر تأثيراً في خطابنا الدعوي الذي أمرنا الله ﷻ أن نوقظ به سمع العالم، وعقله... ووجدانه... ونقوده إلى الصراط...

إننا إذا أردنا لأمتنا الإسلامية أن تستأنف دورها الفعال في خرائط العالم... ولحضارتنا أن تبعث من جديد، فإن علينا أن نبدأ بالمسجد، كما بدأ رسول الله ﷺ مسيرته لبناء الدولة، والأمة والحضارة... فهو المنطلق والملاذ، ويمكن ـ إذا أُحسن توظيفه، وتمت استجاشة الحدود القصوى المتاحة لقدراته التعبدية، والتثقيفية، والدعوية ـ أن يحقق شيئاً كبيراً.

إن المسجد هو المؤسسة الوحيدة التي تغطي الزمن والمكان الإسلاميين... القلب الذي ينبض صباح مساء على مدى الوقت كلّه، والذي يغطي بتوزيع عادل، جغرافية عالم الإسلام من أقصاها إلى أقصاها.

إنه بهذا الحضور في قطبي الحركة التاريخية، وبقدرته في الوقت نفسه على حشد الإنسان والجماعة المسلمة في مواجهة التحديات والمطالب والمتغيّرات... إنه بهذا وذاك قدير على تأدية مهمته الوظيفية الكبرى... وعلى مدى تاريخ الإسلام، في امتداده وانحساره معاً... كان المسجد يؤكد حضوره الفاعل منطلقاً وملاذاً...

وها هو ذا في اللحظات الراهنة، زمن الصحوة الإسلامية يعد بإعادة صياغة المستقبل بما يريده الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام.



٢
حول خطبة الجمعة

إذا جئنا إلى صلاة (الجمعة)، وخطبتها، وجدنا أنفسنا قبالة تفريط بفرصة ذهبية لم يأذن به الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن خطبة الجمعة هي خطاب إعلامي فريد، لم يعط لأمة في الأرض غير المسلمين، وهي فرصة مدهشة يفترض أن يعض عليها المسلمون بالنواجذ، لأنها تضع أمة بكاملها من المحيط إلى المحيط، بل على مدى العالم كله، وفي نهاية كل أسبوع، في قلب العالم، وقبالة معطياته المتجددة وتحدياته المتواصلة، وتمنح المسلم لقاءً أسبوعياً يتلقى فيه أمور دينه ودنياه، لحظة بلحظة ويوماً بيوم.

لكننا، منذ زمن تخلّفنا وانفكاكنا عن مطالب الإيمان والإسلام، وغفلتنا عن ضرورات التقوى والإحسان، غدونا واحدة من أكثر الأمم في الأرض هدراً للطاقات والفرص المتاحة، وتغييباً للأولويات. ولعل هذه، من بين عوامل عديدة أخرى، ما يفسّر سبب هزيمتنا، وتراجعنا إلى الخطوط الخلفية، وترك «العالم» الذي سخّر لنا ابتداءً، للكفرة الفجرة يصولون فيه ويجولون.

آلاف المنابر، بل عشرات ألوفها، موزعة بشكل عادل على جغرافية عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، يرفع عبرها الخطاب الإسلامي أربع مرات في الشهر الواحد، ويلزم المسلمون بحضوره والإصغاء إليه، ويحذرون من اختراقه أو التساهل في شروطه وتقاليده، فيما يشكل المطالب الأساسية للإعلام الناجح، كان يمكن أن نقلب به الدنيا رأساً على عقب، وأن نعيد صياغتها لصالح الإسلام والمسلمين.

ولكن الذي يحدث أن عشر معشار مردود كهذا لا يتحقق في ديار الإسلام، بل قد يحدث ـ في أحيان كثيرة ـ ما هو نقيض هذا: تحويل هذه الأداة الإسلامية الفاعلة إلى سلاح بأيدي الطاغوت لضرب الإسلام والمسلمين.

فهي ـ إذن ـ الخطيئة المزدوجة، والخسارة الفادحة بأي معيار من المعايير... ولنتخيّل كما لو أن هذه الفرصة أعطيت لليهود مثلاً، أو النصارى، أو الشيوعيين أيام مجدهم، ماذا كانوا سيفعلون بها زمن دعاواهم وتمكّنهم في الأرض؟!

إن خطباءنا ـ في معظم الأحيان ـ بدلاً من الالتحام بالعالم، والإيغال في شرايين الحياة الإسلامية، عرضاً للحال، وتشخيصاً للداء، ووصفاً للدواء، نجدهم يفكون ارتباطهم بالعالم والجماهير، ويهربون إلى التاريخ حيناً، وإلى موضوعات مستهلكة لا علاقة لها بالزمن والمكان والإنسان، حيناً آخر، وإلى «المناسبات» الدينية التي يعاد فيها القول سنة بعد أخرى، حتى كاد الصغار والكبار يحفظون مفرداتها عن ظهر قلب.

وبدلاً من استثارة المصلين، وإشعال النار في وجدانهم، وتحفيز عقولهم، وفتح أعينهم جدياً على ما يجري في العالم، وعما يراد بهم ويرسم لمصائرهم الكالحة، بدلاً من تقديم الحلول لمشاكلهم المتجددة، وصياغة تصاميم فكرية تعينهم على مجابهة مطالب الحياة، وإعادة ترتيب مفرداتها في ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومقاصد الشريعة العليا، وقبالة التحديات المعاصرة ومطالب المشروع الحضاري المنوط بالجماعات الإسلامية...

بدلاً من هذا كلّه، تتحول خطبة الجمعة إلى تكرار لموضوعات مستهلكة تثير الملل في نفوس المصلّين، وقد تدفع بعضهم إلى النوم، أو تسوقهم إلى الشرود والتحاور الصامت مع همومهم الخاصة التي لا يخرجهم من دوّاماتها إلّا صوت الخطيب وهو يرفع كفيه بالترحم والدعاء!

كم من المصلين يتجه إلى الجامع ظهيرة الجمعة، بنفس متفتحة، وعقل توّاق للتعرّف والاكتشاف وإضافة شيء ذي غناء إلى رصيد الفكر والثقافة؟ وكم من المصلين يتجه إلى الجامع تملأ جوانحه الغبطة والفرح بالاستماع إلى خطبة تمنحه شيئاً عزيزاً؟ وكم من المصلين يتجه إلى الجامع لا يحاصره الاكتئاب لكونه ملزم بحضور خطبة معادة، وكليشيهات مكرورة، وموضوعات مستهلكة، قد تستغرق من وقته ساعة أو تزيد؟

وقد ينضاف إلى هذا كله ما يلحق بأعصاب مرهفي الحس من المصلين من أذى بسبب صراخ الخطيب، وانفعاليته الزائدة،

وزعيقه الذي لا مبرر له على الإطلاق، بعد إذ أغناه مكبر الصوت عن الصراخ والزعيق!!

وهل ثمة من ضرورة للطروحات الإنشائية، والاستثارات العاطفية، في زمن نحن بأمسّ الحاجة فيه إلى الطرح الفكري الهادئ، والتصاميم الذهنية التي تعيننا على إعادة صياغة حياتنا التي تعرضت منذ قرون للتفكك والفوضى والدمار؟

هل ثمة من محذور شرعي في تحويل خطبة الجمعة إلى محاضرة رصينة يحلّ فيها الطرح الهادئ محل الصراخ الذي يصمّ الآذان ويتلف الأعصاب؟!

لقد جاء الإسلام لكي يعلّم الإنسان المؤمن حشداً من القيم والممارسات الحضارية، التي تشبّث بها الغربي (المتحضّر)، وافتقدناها نحن، فكانت واحدة من أسباب تخلّفنا وتفوقهم.

إنهم يعرفون كيف يوظفون كل دقيقة أو لحظة، ونحن نفرّط بالساعات والأيام... ولنتذكر عشرات الخطب التي ألقيت على منابر الجمعة، بل مئاتها، فإننا لن نجد فيها إلّا تأكيداً لهذا التفريط بالزمن، وعدم الإفادة من الفرص المتاحة وتوظيفها في حدودها القصوى...

إنها تتحدث لألوف المصلين، وعشرات ألوفهم ومئاتها، بموضوعات سبق وأن طرحت عشرات المرات، بينما هناك في الطرف الآخر مواضيع وقضايا ملحّة، تتميز بالجدة، ويمكن أن تمنح جماهير المسلمين إضافة حقيقية هم بأمسّ الحاجة إليها.

إن خطيب الجمعة ليس مجرد متحدّث متمرّس يملك حنجرة قوية، وقدرة على الصراخ، وثروة وعظية، وشيئاً من مطالب هذا الدين، ولكنه يتحتم أن يكون عالماً مفكراً مثقفاً وفقيهاً لكي يؤدي وظيفته بالإحسان المطلوب.

يتحتم أن يملك وعياً سياسياً، وخبرة دعوية، وفقهاً حضارياً، لكي يقدر على ترتيب الأولويات، وصياغة خطابه المتوافق مع مطالب اللحظة التاريخية، التي يرفع فيها الخطاب لكي يؤدي دوره المطلوب.

ويتمنى المرء أن لو يتفق خطباء الجمعة على جملة من تقاليد العمل، التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم بأكثر وتائرها فعّالية...

ومن بين هذه التقاليد اجتماع دوري يتداعون إليه لرسم خطة عمل أو برنامج زمني لمدى شهرين أو ثلاثة ترتب فيه الموضوعات وفق التخصصات الأساسية: ميدانية، أو سياسية، أو فكرية، أو علمية، أو فقهية، أو دعوية، أو حركية، أو ثقافية... وتترك الحرية للخطيب في الحالات التي تستجد فيها وقائع وأحداث تقتضي التوقف عندها ومتابعتها...

والمهم هو تحقيق تغطية متوازنة للسياقات كافة، وتنفيذ للموضوعات الأكثر إلحاحاً... وإقناع حشود المصلّين بأن إعلام الجمعة ليس ضرباً على غير هدى، وإنما هو تخطيط وبرمجة، وترتيب مسبق للأولويات، وإعداد مدروس للموضوعات التي ستقدم إليهم على مدى عدة أسابيع...

إن العلم الحديث ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ والذي هو

اليوم لغة العصر، وأداة إقناعها المؤثرة، أخذ يقدم في العقود الأخيرة معطيات وكشوفاً غزيرة، لا يستطيع أحد أن ينكر دورها الفعال في تعزيز قيم الإيمان، وتأكيد ما جاء به هذا الدين مصداقاً للآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولكن كم من منبر في عالمنا الإسلامي ـ على امتداده ـ استطاع أن يحقق التواصل مع هذه المعطيات والكشوف العلمية، لكي يمنح المؤمنين، وبخاصة الشباب منهم، قناعات أكثر عمقاً وأشد تأثيراً؟

وما يقال عن العلم يمكن أن يقال عن الفكر والسياسة والفقه والدعوة والتحديات الحضارية؛ من أمثال العولمة، والنظام العالمي الجديد، ونظريات نهاية التاريخ وصراع الحضارات، ومسألة الحوار بين الغرب والشرق، وطرائق عمل الجماعات الإسلامية في ديار الغرب... إلى آخره... ولن يكون صعباً على الخطباء ـ إذن ـ ترتيب الخطط الزمنية، التي تستهدف تغطية هذه السياقات كافة بأكبر قدر من الفاعلية والتركيز.

إننا ـ مرة أخرى ـ إزاء فرصة إعلامية هائلة لم تعط لغير المسلمين... فرصة استكملت أسبابها، وذلك بتغطيتها الزمنية كل أسبوع، والمكانية حيث تنتشر المساجد في العالم كله، فضلاً عن إلزامها الجماهير بالحضور... والإنصات،.. كما أنها استكملت أطرافها الأساسية من خطيب وخطبة وجمهور... ولكننا أمة

اشتهرت بتضييع الفرص الذهبية مادية ومعنوية، والتفريط بها... فهل آن لها أن تنتبه!!

والآن فإن من الضروري تقديم جدول أوّلي لعدد من الموضوعات التي يمكن أن يتفق عليها خطباء الجمعة، وقد يضاف إليها الكثير:

١ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل **ظاهرة ثورة الشباب ضد طواغيت العصر.**

٢ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل **وضع الأمة الإسلامية في العصر الراهن.**

٣ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل **أسباب انكسارنا الحضاري** من مثل:

أ ـ انحسار الجهاد وتضاؤل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب ـ غياب مفهوم التوحيد وتسلل الشرك والصنمية.

ج ـ الاستبداد السياسي.

د ـ الفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية.

هـ ـ طغيان القبلية والإقليمية والعرقية على مفهوم الأمة.

و ـ الظلم الاجتماعي.

ز ـ الترف والتكاثر.

ح ـ التحلل الخلقي والسلوكي.

ط ـ الفساد الإداري.

ي ـ التمزق المذهبي.

ك ـ الغلّو والتشدّد.

ل ـ انتشار الرؤية الإرجائية.

م ـ انتشار البدع والخرافات.

ن ـ غياب الاجتهاد وسيادة التقليد والاتباع.

س ـ غياب العلم وانتشار الجهل.

ع ـ الصراع بين الثنائيات.

ف ـ فوضى التعامل مع الآخر.

ص ـ تضاؤل القدرة على توظيف المكان.

ق ـ تضاؤل القدرة على توظيف الزمن.

ر ـ أخطاء القيادات الإسلامية المتأخرة.

ش ـ العوامل الخارجية.

٤ ـ عدة خطب في عرض وتحليل **عوامل انبعاثنا الحضاري**:

أ ـ السياق الفكري.

ب ـ السياق الثقافي.

ج ـ السياق العلمي.

د ـ السياق الحضاري.

هـ ـ السياق الإنساني.

٥ ـ عدة خطب في عرض وتحليل **شبكة الشروط التي صنعت حضارتنا الإسلامية** وهي قادرة على أن تصنعها مرة أخرى:

١) النقلة التصورية الاعتقادية.

٢) النقلة المعرفية.

٣) النقلة المنهجية: السببية والقانونية التاريخية ومنهج البحث الحسّي ـ التجريبي.

٤) النزوع إلى الأمام.

٥) التحذير من هدر الطاقة.

٦) مبدأ الاستخلاف.

٧) مبدأ التسخير.

٨) روح العمل والإبداع.

٩) مجابهة التخريب والإفساد.

١٠) التوازن بين الثنائيات وتوحّدها.

١١) التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون.

١٢) الميزة التحريرية.

٦ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل **عصر الرسالة كمشروع حضاري**، من مثل تحقيقه:

١) التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

٢) الوحدة في مواجهة التجزّؤ.

٣) الدولة في مواجهة القبيلة.

٤) التشريع في مواجهة العرف.

٥) المؤسسة في مواجهة التقاليد.

٦) الأمة في مواجهة العشيرة.

٧) الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.

٨) المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى.

٩) المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.

١٠) الإنسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخلقية والسلوكية المتجذرة في العقيدة في مواجهة (الجاهلي) المتمرس على الفوضى والتسيّب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

٧ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل الجوانب الإيجابية في حضارتنا الإسلامية.

٨ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل المحاولات الانقلابية في تاريخنا من مثل:

١ ـ عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ).

٢ ـ نور الدين محمود (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ).

٩ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل شخصيات جهادية عبر التاريخ.

١٠ ـ عدة خطب في الهجوم على تناقضات الفكر الغربي.

١١ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل شهادات الغربيين بحق الإسلام: عقيدة، وشريعة، وعبادة، ونبياً، وحضارة، وانتشاراً في الأرض، وتعاملاً مع المغلوب.

١٢ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل مفهوم الدولة والقيادة والسلطة في الإسلام، وتطوّره التاريخي.

١٣ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل الهجمات المضادة في تاريخنا وعوامل الانتصار عليها.

١٤ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل تعامل المسلمين مع الآخر وتعامل الآخر مع المسلمين.

١٥ ـ عدة خطب تتناول تفسير سورة الإسراء ومصير بني إسرائيل.

١٦ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل المشروع الحضاري الإسلامي.

١٧ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل قضية المرأة والأسرة المسلمة والتحديات التي تجابهها.

١٨ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل قضية المعرفة الإنسانية ودورها المدمّر لمقومات الأمة الإسلامية، وحركة إسلامية المعرفة في مجابهتها.

١٩ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل الوحدة الإسلامية وسبل مقاربتها.

٢٠ ـ عدة خطب تتناول قضية المبتعثين إلى الغرب وسبل التعامل مع الظاهرة.

٢١ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل ظاهرة الاجتهاد في توقفه، وحوافزه، ووسائل تحقيقه.

٢٢ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل أزمة التعليم والتربية في واقعنا المعاصر.

٢٣ ـ عدة خطب تتناول بالعرض والتحليل المستجدّات الدولية الراهنة وسبل التعامل معها من مثل:

١) العولمة.

٢) النظام الدولي الجديد.

٣) نظرية نهاية التاريخ.

٤) نظرية صراع الحضارات.

٥) قضية الحوار بين الأديان والثقافات... الخ...

❁ ❁ ❁

فلو أتيح لخطباء الجمعة أن يبرمجوا خطبهم في ضوء المعطيات السابقة؛ فإنهم سيعيدون لهذه الوظيفة الإعلامية الكبرى مهمتها الأساسية في توعية الناس بهمومهم وسبل الخروج منها... والقدرة على إدراك أبعاد التحديات التي تجابه الأمة وطرائق التعامل معها... وذلك هو ما أريد لخطبة الجمعة أن تمارسه في واقع الحياة الإسلامية على امتدادها في الزمن والمكان.

لأضرب لكم مثلاً واحداً فحسب، من بين عشرات الأمثال ومئاتها، على الخطأ المزدوج بحق المنبر! تلك هي عزله عما يجري في العالم، من جهة، وعدم الإفادة منه لتعزيز مواقع الإيمان واليقين بمواجهة قوى الكفر والتحلّل والإلحاد من جهة أخرى.

إن خطباءنا إذ ينسحبون بخطبهم التقليدية للحديث عن المناسبات الدينية مرة، ومرتين، وثلاثاً، وعشرة وعشرين، إنما يفرّطون بهذه الفرصة التثقيفية النادرة، التي منحهم إياها رسول الله ﷺ، يبذّرون دقائقها فيما لم يأمر به الله ورسوله!!

وأسالكم بالله... من منا لا يعرف تفاصيل وجزئيات معركة فاصلة مشهورة كمعركة بدر؟ وحادثة مؤكدة عظيمة كالإسراء

والمعراج؟ أفيتحتم على المصلّي أن يتلقى إعادةً وتكراراً لعشرين مرة أو ثلاثين لأحداث كبيرة معروفة كهذه، بدلاً من الإفادة من دقائق الجمعة هذه لتحقيق كسب معرفي جديد، هو بأمسّ الحاجة إليه في عصر الصراع المحتوم بين الشك واليقين؟ ورغم أن رسولنا (ﷺ) يعلمنا أن «**من تساوى يوماه فهو مغبون**»!

لقد جاء الإسلام لكي يعلّم الإنسان المؤمن حشداً من القيم الحضارية... ولا ريب أن احترام الزمن والحرص عليه، والإفادة منه، وحسن توظيفه، هي واحدة من هذه القيم التي تشبث بها الغربي (المتحضر) وافتقدناها نحن، فكانت واحدة من أسباب تخلّفنا وتفوّقهم!! إنهم يفيدون من كل دقيقة أو لحظة، ونحن نفرّط بالساعات والأيام والسنين... ومن أجل أن تقتنعوا بهذا لكم أن تستعرضوا في أذهانكم عشرات الخطب التي ألقيت من على المنابر، بل مئاتها، فانكم غير واجدين فيها إلّا تأكيداً لهذا التفريط بالزمن.

عشر دقائق أو عشرون تذهب خمس منها في مقدّمة مكرورة في الترضّي والترحّم، وهي ليست ركناً من الأركان... وتذهب خمس أخرى في الدعاء والاستغاثة، وهما ليسا ركناً من الأركان... أما الدقائق المتبقية فتسحب المستمعين، رغماً عنهم، إلى أحداث ومناسبات تاريخية ودينية أصبحت لكثرة التكرار معروفة الأجزاء والتفاصيل، أو تحدّثهم عن مواضيع سبق وأن طرحت عشرات المرّات... بل إن بعض الخطباء يرتبون مسبقاً العدد المكافئ من

الخطب لأسابيع السنة كلها... ويعيدون القول فيها سنة بعد أخرى...بينما هناك في الطرف الآخر مواضيع ملحّة تتميز بالجدة، ويمكن أن تمنح الحضور إضافة حقيقية كم هم بحاجة إليها... ولكن من من الخطباء يتقدم لكي يمنحهم إياها إلّا القلة التي لا يقاس عليها، فهي أشبه بالاستثناء الذي يعزّز القاعدة ولا ينفيها...

نعود في أعقاب كل جمعة إلى دورنا دون أن نضيف إلّا في القليل النادر شيئاً على عقولنا وأرواحنا، حتى لقد غدت صلاة الجمعة بالنسبة لمعظمنا، ولنقلها بصراحة، أشبه بإسقاط واجب لا بدّ من تأديته... مع العلم مسبقاً بأننا سوف لا نحظى منه بغناء!! فلماذا؟

إننا ـ مرة أخرى ـ بتعاملنا الخاطئ هذا مع المنبر نفرّط بواحدة من أكثر الفرص قيمةً... ونهدر طاقة كان يمكن أن تصنع الكثير... عبر معالجة جملة من المسائل والقضايا الأشدّ إلحاحاً، وفق سلّم للأولويات يضع في اعتباره تقديم الأهم، على المهم، على الأقل أهمية... وهو تقليد منهجي كان الآباء والأجداد يعرفون كيف يلتزمون به... أما نحن فقد كدنا أن نضيّعه عبر تعاملنا الخاطئ هذا... مع المنبر...





أخطاء في حياتنا الاجتماعية

لنبدأ بالطريق... الذي هو الشريان الحيوي الذي يربط بين الأحياء، ويقود الناس إلى أهدافهم اليومية... ثمة فارق كبير بين ما أريد له في تصميم حياتنا الإسلامية من نظافة، وانسيابية، وجمال، وبين ما آل إليه في معظم مدننا من قذارة، وعرقلة، وبشاعة... بحيث أن المواطن وهو يجتازه يتوقع مسبقاً ما سيصادفه من متاعب ومنغّصات...

صحيح أن السلطات الحاكمة بمؤسساتها «النائمة» تتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية في هذا الذي يعاني منه الناس، ومع السلطات هناك ما يسمى بمؤسسات المجتمع المدني والمنظمات الخيرية، التي يتحتم عليها أن تمدّ يدها لانتشال الطريق مما يعانيه من ويلات...

لكن مسؤولية المواطن العادي نفسه تفوّق هؤلاء وهؤلاء... إذ إن معظم المواطنين في مدننا ما داموا قد فقدوا الإحساس بالجمال... ولم يتذوقوا متعة الانضباط والالتزام... وانحدرت ذائقتهم إلى الحضيض... وفقدوا الكلمة الطيبة المعلقة على

الألسنة، والبسمة الحانية المشعة على الوجوه... فسنظل ندور في الدوّامة إياها...

تلك التي تجعل الناس يرجعون إلى دورهم وهم يسبّون ويلعنون ما آلت إليه الحركة اليومية عبر الطرقات من متاعب ومنغّصات... دون أن يلتفتوا ولو للحظات إلى أنهم هم بسلوكهم المجافي للذوق... بكراهيتهم المتأصلة للجميل بتحدّيهم الوقح لمطالب النظام... بنفورهم من مفردات السلوك الوضيئة... قد صنعوا هذا الذي يعانون منه ويصبّون عليه الشتائم واللعنات...

أشياء وممارسات كثيرة غابت عن الطريق في مدننا الإسلامية، فتحوّل الذهاب والإياب اليومي إلى ساحة للاستفزاز... للكلمات البذيئة المتبادلة بين المتخاصمين... ولرفع الأيدي والآلات الجارحة، وربما القاتلة في وجوه بعضهم... للتباهي بخرق النظام وتحدّيه... بل بالتفوّق على رجل الشرطة الذي يحرس النظام، وتهديده بالقتل إذا اقتضى الأمر...

أين **إفشاء السلام** على من تعرف ومن لا تعرف، كما أمرنا رسول الله ﷺ؟ وأين ردّ التحية بأحسن منها أو مثلها، كما أمرنا كتاب الله؟ وأين الكلمة الطيبة التي أوصانا بها رسولنا المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) عندما اعتبرها صدقة تسجل في الرصيد الإيجابي لمن يتلفظ بها ويشيعها بين الناس؟ وأين البسمة الحانية والبشاشة المرسومة بصدق على الملامح والوجوه؟ فيما أكد عليه رسول الله ﷺ... أين هي أحاديث الرسول المتعاقبة التي ترمي إلى جعل الطريق ساحة للمحبة والوئام، والانسجام، وتيسير

أمور الناس المعيشية، والتخفيف عن معاناتهم النفسية: «**الكلمة الطيبة صدقة**»... «**تبسّمك في وجه أخيك صدقة**» «**أن تسلّم على من تعرف ومن لا تعرف**»...

هذه كلّها، وغيرها كثير، أصبحت خبراً من الأخبار التي نتسلى في الحديث عنها في جلساتنا وأمسياتنا... دون أن يكون لها أيما تأثير على سلوكنا اليومي ونحن نجتاز الطرقات في ذهابنا لأعمالنا أو العودة منها...

لقد وضع رسول الله ﷺ قاعدة عامة في التعامل مع الطريق... وهو «**إماطة الأذى عن طريق الناس**»، بكل ما تنطوي عليه من مفهوم حضاري شامل، يسعى لجعل الطريق مرآة صادقة للحياة الإسلامية في جانبيها المعنوي والمادي... على السواء...

ولقد أشرنا إلى الجوانب المعنوية لهذه القاعدة... أما جانبها المادي المنظور، فحدّث ولا حرج... غياب الوعي بضرورات تجميل الطريق... رمي الأزبال والأقذار كيفما اتفق... استئصال النباتات والزهور... تلطيخ جدران الدور الحديثة بالخطوط البشعة... كراهية التزام النظام في الحياة اليومية والتباهي بخرق (الطابور)...تحدّي إشارات المرور رغم ما في ذلك من مآسٍ وويلات... إخراج المياه الآسنة إلى الطريق العام... بل والتغوّط في الطريق العام... ويزيد الأمر سوءاً ذلك الدخان الأسود المسرطن الذي تنفثه مئات المولدات والدنابر والسيارات العتيقة

في وجوه المارة، وتدفعه دفعاً إلى رئاتهم ممتزجاً بالهواء الذي يتنفسونه...

الشوارع المسحوقة التي تآكل قارها منذ أزمان بعيدة لا يعلمها إلّا الله، وحفرت فيها المياه الطائشة النقر والحفر والأخاديد...التجاوز على الشوارع بعربات الفاكهة والخضار، وتضييق الخناق على المرور ببسطات التجار المتنقلين... أسراب الذباب التي تغزو الأطعمة المعروضة دون أن يكلف باعتها أنفسهم بتغطيتها بطبقة من القماش الرقيق... اللحوم الملقاة على المصاطب الساعات الطوال في قيظ الصيف دون أن يفكر أصحابها بما قد يسببه ذلك من تلفها وتسمّمها... فيرحمها ويضعها في أجهزة التبريد؟! غرق الشوارع في أعقاب كل مطر عنيف ينزل من السماء... ويمنع الناس من العودة إلى دورهم...

وغير هذه المناظر المادية التي تعمل على النقيض من مبدأ «إماطة الأذى»... عشرات وعشرات... والحق أن الطرفين يتحملان المسؤولية عن هذا الذي يشهده الطريق من متاعب وويلات: الدولة والمواطن... على السواء... لكأنهما اتفقا، ووقعا عقداً مبرماً على التعاون معاً من أجل إلحاق الأذى، وليس إماطته، عن طريق الناس...

ويتساءل المرء: أين ذهب **الإحساس بالنظافة** الذي كان سائداً في مدننا حتى عهد قريب؟ وأين الذوق والفن والأخلاق؟ أين الإحساس الذاتي والرقابة الباطنية التي تولّدها التقوى في نفوس

الناس، في ضرورة الالتزام بالنظام... والتعاون على تنظيف الطرق العامة... والتأثم من أية ممارسة قد تجرح الأناقة والجمال؟

هذه كلّها قرئ عليها السلام... وأصبحت مجالاً للدراسات التاريخية، التي تتحدث عما كان، وليس كما هو كائن، أو ما يجب أن يكون!!

ولنعد ثانيةً لكي نعاين عن قرب صور الحياة في طرقنا العامة: فهذا شخص يلقي النفايات والقاذورات في قارعة الطريق، وتلك امرأة تسكب الماء المستعمل من نافذتها على المارة، وآخر يعاكس النساء والفتيات دون حشمة أو حياء ودون مراعاة للآداب العامة، وآخرون يتخذون الأرصفة مكاناً للبيع والشراء وقطع الطريق، وتلك امرأة أخرى تخرج في لباس فاتن يغري الرجال ويدعوهم إلى الفاحشة، وثمة سائق طائش يقود سيارته بسرعة جنونية قاتلة... ومجموعة من الشباب المخنّثين الذين يتكاثرون في الأسواق التي تؤمها النساء، لكي يتحرشوا بهن...

لقد علّمنا الإسلام كيف نصون حرمة الآخرين في الطرقات والشوارع، فقال ﷺ: «**إياكم والجلوس في الطرقات**». فقالوا: يا رسول الله! ما لنا من مجالسنا بدّ نتحدث فيها. فقال: «**إذا أبيتم إلّا الجلوس فأعطوا الطريق حقه**». قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «**غض البصر وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وحسن الكلام**»... وقال ﷺ: «**من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم**»... والحديث عامٌّ في كل أذى فعلي أو قولي، عامّ أو خاصّ، مادي أو معنوي. وقال ﷺ:

«**اتقوا اللاعنين**». قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: «**الذي يتخلى (أي يتغوط) في طريق الناس وظلهم**»!! وقال: «**إذا مرّ أحدكم في مجلس أو سوق وفي يده نبل فلا يخدش به مسلماً**»...

(لا يخدش به)... إلى هذا الحدّ من الحساسية الفائقة تجاه الآخر واحترام مشاعره وحماية حقه الكامل في الأمن والسلامة... وقال ﷺ: «**إن من ضيّق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له**»... فأيُّ عقاب هذا الذي ينزل على رؤوس قاطعي الطريق؟!

بل إن الأمر بإماطة الأذى ليصل إلى هذا الحدّ المدهش، الذي يحدثنا عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**نزع رجل لم يعمل خيراً قط غصن شوك عن الطريق، إما كان في شجرة فنزعه وألقاه، وإما كان موضوعاً فأماطه، فشكر الله له فأدخله الجنة**»!!

إن على المسلم، وهو يجتاز الطريق، أن يحترم الآداب العامة، فيمشي قصداً دون تبختر أو اختيال...لا يتكبر ولا يدافع ولا يضايق الناس ولا يرفع صوته، تنفيذاً لأمر الله ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩] ولأمر الله ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومما أوجبه الإسلام على المسلم غض البصر أثناء وجوده في الطرقات، فلا ينظر إلى حرمات الناس وعوراتهم امتثالاً لأمر الله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أنه لا يجوز خدش الحياء العام في الطريق، فعلى كل من المسلم والمسلمة أن يراعي ذلك، فلا يجوز للمسلمة أن تفتن الناس بلباس يكشف سترها ويظهر عوراتها، أو إثارتهم برائحة تفوح منها، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

أخطاؤنا عبر الطرقات كثيرة كثيرة لا تعدّ ولا تحصى... وتحضرني الآن؛ من خلال خبرتي الشخصية، بعض الصور المؤلمة التي يمكن أن تضاف إلى ما سبق...

وأنا في طريقي إلى المسجد لأداء الصلاة إذا ببعض الشباب يزاحمونني على اجتياز بوابة المسجد، لكي يدخلوا قبلي... بطريقة لا تدل على ذرة من ذوق أو أصول... رغم أن أحدهم لا يتجاوز نصف عمري بل ربعه... معتقدين أنني ما دمت أحمل لقب (دكتور)، فلا بدّ أن أكون متكبراً... وفي هذه الحالة فإن التكبر على المتكبرين يصبح واجباً... فلندافعه، ونسبقه في الدخول... دون أن يتساءل أحدهم: هل كل من يحمل الشهادة العليا متكبر بالضرورة؟ خاصة وأني لا أمقت شيئاً في الحياة قدر مقتي للكبرياء والمتكبرين، مستذكراً حديث رسول الله ﷺ، بل تنديده المخيف «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»... فلا حول ولا قوة إلّا بالله...

في عام (١٩٥١م) وكنا بعدُ طلبة في المدرسة الابتدائية أخرجنا من المدرسة في يوم الشجرة (٢١ آذار) وكلّف كل واحد

منا أن يزرع شجرة صغيرة في المكان الذي حدّد له... فمارسنا العمل بمتعة بالغة وعدنا إلى دورنا ونحن سعداء بمشاركتنا في إحدى حلقات تجميل مدينتنا الموصل... ولكني ما لبثت بعد أيام قلائل أن فوجئت بأن صبيان الموصل نفسها انتزعوا كل الأشجار... ولم يبقوا على واحدة منها على الإطلاق... فماذا لو سمحوا لها بالتنامي، لكي ما تلبث الموصل أن تزدهي بالخضرة والجمال... ولكن الحقد على كل ما هو جميل لا يسمح بهذا!... فلا حول ولا قوة إلّا بالله...

وقريب من هذه الواقعة... ما فعلته بلدية الموصل في منتصف ستينيات القرن الماضي، بتعليق لافتات بلاستيكية تحمل أسماء الشوارع الرئيسية في الموصل، وتنار من داخلها بالكهرباء فتضفي على اللوحة جمالاً...

لم يتح لهذه اللوحات أن تبقى في أماكنها سوى أسابيع معدودات، إذ قام صبيان الموصل، من أعداء الجمال بتسليط مقاليعهم عليها ضرباً بالحجارة حتى أجهزوا عليها...

في ربيع كل عام تتسلق شجيرات الورد الأحمر والبرتقالي، جدار حديقة بيتي وتطل بمنظر رائع على الطريق العام... ولكن هل يسمح الصبيان الذين لم يتلقوا أي شيء على الإطلاق من مبادئ التربية الجمالية، وضرورات احترام الطريق العام، من آبائهم ومعلميهم... بأن تظل هذه الزهور في أماكنها لكي تزيّن الطريق؟ أبداً... فما هي إلا أيام قلائل حتى ينقضّ عليها

الصبيان بطريقة وحشية فيجردونها من أغصانها... وطالما قلت لهم: لماذا؟ ألا يتحتم أن تبقوها في أماكنها لكي تزين لكم الطريق؟ فيردون علي بنظرة بلهاء مترعة بالحقد والرغبة في الانتقام...

من أجل ذلك لم تبق في شوارعنا العامة جزرة وسطية واحدة مفروشة بالأشجار والورود... وإنما تسارع البلدية بصب الكونكريت عليها... وكفى الله المؤمنين القتال...

ولطالما شاهدت بأمّ عيني، وأنا أسوق سيارتي في هذا الشارع أو ذاك... سائق السيارة التي تنساب أمامي يسحب خزان الأوساخ من أمامه، ويفتح نافذة سيارته ويرمي بها في منتصف الشارع العام، وهو يحسّ بسعادة غامرة كيف أنه تخلص من عبء ثقيل؟!

ولطالما تذكرت وأنا أرى هذه المفارقة، قصة ذلك المسافر (الأجنبي) على ظهر باخرة إيطالية، عبر البحر المتوسط، وكيف أنه وقد أكمل تدخين سيكارته راح يلتفت يميناً وشمالاً وفي يده بقاياها بحثاً عن حاوية أزبال معلقة على جدار السفينة... ولم يرتح إلا بعد أن وجدها... وكان بمقدوره لو كان من ديارنا أن يرمي بها في البحر المتوسط الذين يمكن أن يضيّع الجبال؟!

ولطالما تذكرت كيف أني وأنا أتجول في شوارع لندن وباريس، واشتري بعض الحاجيات من هذا المحلّ أو ذاك، كنت أتلقى من البائعين والبائعات كلمة شكراً وكأنها علقت على ألسنتهم... والبسمة الحانية وكأنها رسمت على وجوههم، وأقارن هذا بأفواه

ووجوه إخواننا في المدن العربية تلك التي ودّعت الكلمة الطيبة والبسمة الحانية منذ زمن بعيد، وشيّعتهما، وأحالت عليهما التراب!!

وأقول في نفسي: إن آداب السلوك التي يتحتم أن نلتزم بها نحن، بسبب من تأكيد قرآننا، ونبيّنا المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) على الالتزام بها... قد تركناها، وأحدثنا بينها وبين ممارساتنا اليومية خندقاً عميقاً... وتركناها للغربيين، الذين عرفوا كيف يوظفونها لجعل حياتهم أطيب طعماً، ولتحقيق مصالحهم الدنيوية في الوقت نفسه...

هذا غيض من فيض مما يشهده الطريق العام في مدننا... فماذا عما يجري في السوق؟

❁ ❁ ❁

بإيجاز شديد، هناك غياب ملحوظ للوعي بالضوابط الشرعية أو عدم الالتزام بها... حيث يصير الربح السريع هو الهدف، والغاية تبرّر الواسطة... وحيث يجد المواطن نفسه وهو يدخل السوق إزاء الاحتكار، والمضاربة والغش، والغدر، والتطفيف، وتدنّي أخلاقيات بائعي الفواكه والخضار الذين لا يسمحون بأن تمتد يد المشتري إلى بضاعتهم من أجل أن يضعوا هم ما يشاؤون من فاسدها...

هذا كلّه، وغيره كثير، مما يشهده السوق، رغم أن القائمين عليه ممن لا تفوتهم الصلاة... أتراهم لم يقرؤوا كتاب الله، ويمروا بسورة المطففين التي تندّد بسلوكهم هذا، وتضعهم وجهاً

لوجه أمام يوم الحساب العظيم... قبالة الله الذي سيحاسبهم الحساب العسير: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

ألم يستمعوا لحديث الرسول ﷺ **«من غش فليس منا»**، ووصفه المسلم الجاد بأنه سمح إذا باع سمح إذا اشترى؟ وأنا أتذكر ها هنا بعض بائعي الفواكه والخضار الذين يصفّون بضاعتهم الجيدة في واجهة سلالهم، أما في الداخل فهو العفن والفساد... وبما أنهم هم الذين يتولون بيع المواد ولا يسمحون ليد أن تمتد إليها، فلنا أن نتصور ونحن نفرغ الأكياس في بيوتنا كم سنجد فيها من البضاعة الفاسدة والمغشوشة؟ وأتذكر كذلك كيف أنني كنت أشعر بالهم والقلق عندما يكتب علي أن أنزل إلى السوق لشراء شيء من الفاكهة والخضار... لا لشيء إلا خوفاً من أن ألدغ من هذا البائع المسموم أو ذاك؟!

وأتذكر، فضلاً عن هذا وذاك، أنك في ديار الغرب تستطيع أن تغمض عينيك وأنت تشتري من هذا البائع أو ذاك... وهذا المحل أو ذاك... دون أن يلحق بك وببضاعتك المشتراة أي غبن على الإطلاق!! فما الذي حدث لكي نتلقى هذا العقاب القاسي ونحن ننزل إلى السوق في مدننا العربية والإسلامية؟

طبعاً هنالك في أسواقنا مساحات وضيئة... وصفحات بيضاء من التعامل بين البائع والمشتري... ولا يمكن لأحد أن يلغيها من

الحساب... لكن مهمة الكتاب الذي بين يدي القارئ هي متابعة حالات السوء في حياتنا... فأرجو المعذرة!!

۞ ۞ ۞

وماذا عن العلاقات المتبادلة بين الجار والجار؟!

إن هندسة الحياة الإسلامية تقوم على البدء بالأقرب ثم تمضي باتجاه الأبعد... تبدأ بالبيت، فالجار، فالطريق، فالحي، فالمدينة، فالأمة، فالعالم... وقد وضع هذا الدين العظيم؛ الذي لم يترك شيئاً أو معضلة أو سؤالاً ملحّاً إلا وقدّم إجاباته الواضحة عليه... صيغاً محكمة لجعل الحياة البشرية داخل كل واحدة من هذه الحلقات تمضي بأكبر قدر من التناغم والتواصل والعطاء والانسجام...

والحديث الآن يمضي ليحكي عن **العلاقة بين الجيران**... حيث نتذكر جميعاً حديث رسول الله ﷺ «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه**»... إلى هذا الحدّ الذي يكاد فيه الجار يتفوق على الأهل والأبناء والذراري في ضرورة مراعاته، وحماية حقوقه، وعدم خدش إحساسه بأية ممارسة، أو كلمة، قد تندّ عن قاموس المحبة، والتآلف، والانسجام...

وثمة التحذيرات النبوية المتواصلة من استراق النظر إلى الجيران، أو التجسس عليهم... أو إلحاق الأذى، أيّاً كان، بهم... أما الاعتداء على عرض الجار فهو من أكبر الكبائر...

ولكن الذي يحدث، في بعض الأحيان ولا أقول في كثير منها،

يبحر باتجاه نقيض لهذه التعاليم... المراهقون والشباب يسترقون النظر إلى فتيات الجيران دون أن يشكمهم أب أو أم... يتركونهم يفعلون ما يشاؤون على هواهم... بل ويحدث ما هو أمرّ وأدهى من هذا: أن الآباء والأمهات عندما يتلقون الشكاوى من جيرانهم بخصوص ما يفعله أبناؤهم... يقفون بعصبية وانفعال مع أبنائهم ويردّون على الجيران بأفحش الألفاظ، فكأنهم ـ بذلك ـ يبرّرون ما يفعله الصبيان.

أكثر من هذا... إنه ينحازون إلى أبنائهم في كل ما تشهده المحلّة من صراعات بين الصبيان، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة تبيّن من هو المعتدي ومن هو المعتدى عليه...

بل إن الجيران اعتادوا تصدير القمامة والقاذورات إلى عتبات جيرانهم... ومع القمامة والقاذورات الروائح القاسية والدخان، وكأن الجيران أصبحوا بمنظور هؤلاء مجرد حاوية للأوساخ...

فأين اللمسات الإنسانية التي أراد هذا الدين أن يزرعها في نفوس الجيران؟!... وأين المودة والأخوّة والتعاون؟ وأين التعايش المشترك، حيث لا يفصل أحدهما عن الآخر سوى جدار رقيق؟ أين حرمة الجيران؟ وأين مواساتهم فيما يلمّ بهم من مشاكل وويلات؟

هذه كلّها قد أصبحت من تقاليد الماضي العتيق... حيث كان الجار يزور جاره... وينجده... ويقدّم له ألذّ الأطباق وأشهى

المأكولات... أما اليوم، فقد تمضي السنة والسنتان وربما عقود السنين دون أن يكلف الجار عناء زيارة جاره والتعرّف عليه... وتوثيق العلاقة به...

والتكافل الاجتماعي الذي هو قاعدة هذا الدين في تنظيم الحياة الاجتماعية بين الجيران والأحياء... أصبح هو الآخر من ذكريات التاريخ، وحتى لو رأى الجار جاره يتلوى من الجوع؛ فإنه لا يكلف نفسه عناء تقديم أي شيء يخفف عنه المعاناة... رغم التحذيرات التي قدّمها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون عن أولئك الجيران الذين يبيتون متخمين وجيرانهم يتلوون مسغبةً وجوعاً... وكيف أن من حق هؤلاء رفع السيف في مواجهة جيرانهم لإرغامهم على أن يمدّوا أيديهم بالعون والمساعدة...

لقد حدّثني كثير من أصحابي كيف أنهم قرّروا ترك بيوتهم والبحث عن أحياء جديدة، هروباً من معاناتهم القاسية مع جيران السوء... ذلك أن الجار ـ كما يقول المثل المعروف ـ قبل الدار...

❁ ❁ ❁

فإذا غادرنا ويلات الطريق، والسوق، والجيران... وانفتحنا على **الحياة الاجتماعية وعلاقاتها** في مداها الواسع؛ فاننا سنلتقي أكداساً من الالتواءات والأخطاء التي طالما تلقينا بخصوصها تحذيرات متواصلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ... يقابلها البدائل الجميلة، التي تجعل الحياة فعلاً تستحق أن تعاش... وإلا

غدت جحيماً لا يطاق... كما نشهده عبر علاقاتنا الاجتماعية في العصر الراهن...

وبسبب من كثرة هذه الالتواءات والمخالفات والأخطاء، فإنني سأكتفي بالتأشير عليها، الواحدة تلو الأخرى... وهنالك غيرها العشرات والمئات... ربّما!!

إخلاف الموعد... وعدم احترام الزمن... والاستهتار بمشاعر الآخرين... ولقد عانيت أنا شخصياً وعلى مدى يزيد عن نصف القرن من هذه الحالة الكارثية ـ إذا صح التعبير ـ ومن قبل من؟ معارف وإخوة وأصدقاء لا تفوتهم صلاة!!

فمن بين كل عشرة مواعيد أضربها مع أحدهم في هذا المقهى أو ذاك، مؤكّداً على الوقت الذي يجب أن يتمَّ فيه اللقاء... هنالك تسع حالات أجيء فيها إلى المقهى المحدّد فلا أجد أحداً... وأنتظر أوقاتاً قد تقصر وقد تطول حتى يأذن الله لي بالفرج، ويطلّ عليّ الشخص الموعود، دون أن يكلف نفسه حتى بكلمة اعتذار عن التأخير... وكأنه قد حصل على رخصة إلهية بالتعامل المتسيّب مع الزمن وبعدم احترام المواعيد...

هذا الأمر نفسه يحدث عندما يكون موعد اللقاء في الدار، في ساعة محددة، فإذا بالشخص المدعو... يتأخر عن الحضور ربما لأكثر من نصف الساعة... ثم يدخل الدار هادئ الأعصاب، مرتاح البال، وكأنه لم يمارس خطأ ما بحق زميله، الذي بلغت أعصابه حدّ الإعياء وهو ينتظر إطلالة الأخ أو الصديق...

وكنت أقول لأولئك ولهؤلاء... أنني عندما أضرب موعداً مع أيٍّ كان، فإن جملة ساعات منبّهة تشتغل في جملتي العصبية، منبهة إياي دقيقة بعد أخرى بقرب الموعد المضروب، كي أكون على استعداد لتنفيذه في وقته تماماً دون زيادة أو نقصان... بينما الطرف الآخر، قد فقد الإحساس بالزمن، وراح يضرب المواعيد متأخراً عن تنفيذها، دونما أي رقيب من الضمير الداخلي ينبهه إلى أن وقت الموعد قد حان...

وكنت أقول لهم كذلك أنني عندما أضرب موعداً فإنني أتوقف عن العمل... قراءة أو كتابة... استعداداً لتنفيذه في وقته تماماً... وما أدراكم ما التوقف عن العمل؟ إنه هدرٌ للوقت لا تحتمله الأعصاب المتوفزة... فكيف إذا تكرر هذا الهدر في أعقاب كل موعد؟!

لقد تعذّبت كثيراً ولا أزال، في إشكالية ضبط المواعيد، ولكن ما كان يعزيني هو تذكر حديث رسول الله ﷺ من أن «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف**»... وأعوذ بالله أن أكون أنا وإخواني كافة محسوبين على هؤلاء!!

وثمة في موازاة هذا **اختراق دور الآخرين دون موعد مسبق**... وقد تفاجئك الزيارة وأنت غارق في قيلولتك... أو منصرف لتناول طعامك... أو مشغول بقراءتك وكتابتك... أو منهمك مع شخص ما جاء يعرض عليك مشكلته المستعصية علّك تجد له فيها

حلّاً... إذن فأين ذهب دور الهاتف... ألا يتحتم أن يتلفن الإنسان الذي يرغب في زيارتك لكي يأخذ منك الموعد الذي يناسبك؟

وثمة **اختراق جلسات الآخرين** في المقاهي والمنتديات والأماكن العامة دون موعد مسبق... ولقد عانيت من هذه الحالة السنوات الطوال... أقطع المسافات وأنا أحمل كتبي وأوراقي للجلوس في المقهى المناسب للعمل والإنجاز... وما أن أبدأ حتى يطلَّ عليَّ وجه صديق يفرض نفسه فرضاً، ويجلس دون أن أدعوه إلى جواري... ويضرب في أحاديثه ذات اليمين وذات الشمال، مفترساً الساعة أو الساعتين التي كنت أحلم بأن أخلو فيهما إلى نفسي ومشاغلي!! فما يكون مني إلا أن أعتذر وأقفل عائداً إلى البيت.

هنالك أيضاً ما يسمى **بآداب زيارة المريض** التي علّمنا رسول الله ﷺ أن تكون قصيرة لدقائق معدودات رحمة بالمرضى أنفسهم... وإذا بالزائرين يخترقون هذا التعليم، ويجلسون إلى جوار المريض الساعات الطوال...

وفضلاً عن هذا وذاك، فقد يحدث أن تدعو إلى بيتك، في هذه المناسبة أو تلك، أشخاصاً محددين، وأنت أدرى بشعابك وبعدد المقاعد التي تستوعب المدعوين... فإذا بأحدهم يأتي، وقد تبرّع من جهته بدعوة أربعة أو خمسة آخرين من أصدقائه المقرّبين... بل إن بعضهم ممن يعشقون أطفالهم، ويدلّلونهم، لا يأتون بمفردهم وإنما يصطحبون معهم هؤلاء الأطفال... ليس هذا فحسب، بل إنهم لشدة عشقهم لأطفالهم لا يردعونهم عن

تصرّفاتهم الصبيانية، ولا يكفونهم عن انتشال الشيكولاتة ووضعها في جيوبهم... فهو على كل حال العشق الحلال الذي ترتخي معه الأيدي فلا تمارس الضرب والتأديب!!

وأما عن غياب **آداب الطعام والمجالس** في حياتنا الاجتماعية، فحدّث ولا حرج... فهنالك من يفرضون عليك فرضاً أن تجلس على الأرض لكي تتناول طعامك... وإذا كنت ممن يعانون من آلام المفاصل أو الفقرات؛ فإن جلستك ستتحول إلى جحيم لا يطاق... ألا يعتقد هؤلاء بأن تقاليد الحياة زمن رسول الله ﷺ هي غيرها الآن... بمعنى أن الجلوس على الموائد، والذي لم يكن معروفاً يومذاك لبساطة الحياة؛ أصبح اليوم من الضرورات... فيما ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»... أي في هذه المسائل الشكلية، وليس في الأمور العقدية أو التشريعية بطبيعة الحال... فلماذا إذن نعذّب الآخرين ونرغمهم على الجلوس مفترشين الأرض لكي يتناولوا طعامهم؟!

ثم إن هناك تقاليد نبوية رائعة في تناول الطعام... يمكن مجازاً أن نسميها بالإتيكيت... بما في ذلك أن تأكل من أمامك، وألا تتحدث كثيراً... و... و... إلى آخره... لكن يبرز هناك من يخرق هذه التعليم، ويضعون بعض المدعوين في دائرة العذاب!!

وأنا ـ شخصياً ـ عبر تجوالي في المدن العربية والإسلامية، عندما كنت أدعى إلى الغداء أو العشاء؛ كنت أدعو الله سبحانه ألا يجلس قبالتي أو إلى جواري أناس شهيتهم للكلام أكثر بكثير

من شهيتهم للأكل نفسه... ولكني كنت في معظم الأحيان أقع في مصيدة هؤلاء... لا يسمحون لك بدقيقة واحدة تخلو فيها إلى لقمتك لكي تتلذّذ بها، وتحسّ بطعمها... ولو درى الإنسان المتحدث ما يخرج من فمه وهو يتحدث من مصائب وفضلات، وربما جراثيم وميكروبات، كما يؤكد الأطباء والباحثون، لكفُّوا عن الكلام وانصرفوا إلى تناول طعامهم بصمت... ولكن من أين تأتي بالصمت، وهؤلاء قد شحنوا بكم كبير من الكلام، لا بدّ أن يخرجوه وإلّا انفجروا وذهبوا بدداً؟!

والسخاء العربي معروف لدى القاصي والداني، ولكن الإلحاح فيه أمرٌ قد لا يكون مقبولاً... وأنت تجلس على المائدة قبالة أصناف شتى من الطعام، تلقي نظرة أولية لكي تختار الشكل الذي يعجبك، أو الذي اعتدت على تناوله... أو الذي لا يلحق بك أيما قدر من المتاعب الصحية... فإذا بصاحب الدعوة، ومن يعينه من الإخوة والأبناء والأقارب يقفون على رأسك كخزنة جهنم، ويصبّون في طبقك من حيث لا تريد، خلطة عجيبة من كل صنوف الطعام... فإذا بك تجد نفسك وقد عزفت عن الاستمرار أمام هذه الخبيصة التي وضعت في طبقك رغماً عنك واستجابة لنداء الكرم والسخاء... ومهما توسّلت بهم وقد رأيت الملاعق الكبيرة تخفق فوق رأسك، أن يدعوك تأكل الذي تشتهي أو تختار... فإنهم لا يكترثون لتوسلاتك، ويلجؤون إلى لوي ذراعك المتشبث بهم إذا اقتضى الأمر... كي ينفذوا مطالب الكرم والسخاء!!

فإذا ما جئنا إلى **آداب المجالس** التي رسمها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في جملة من التعاليم الرائعة، التي تحيل هذه المناسبات إلى ساعة أو ساعتين من الانسجام والألفة والمحبة وتبادل الأحاديث الهادفة... فإننا سنلتقي الكثير من الالتواءات التي تضرب هذه التعاليم عرض الحائط، وتمضي لتأكيد ما يريد أصحابها لا ما يريده كتاب الله وسنة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)...

يأمرنا رسول الله ﷺ، بأننا إذا تحدثنا فلنقل خيراً أو لنصمت... ولكن هنالك من مرتادي المجالس من يملكون شهية أسطورية للكلام... لا يسمحون لأحد أن يقطع عليهم حديثهم المتدفق كالسيل... وقد يستخدمون أيديهم، فضلاً عن ألسنتهم، لمنع أي شخص من اختراق حديثهم الذي نعرف من أين ابتدأ لكننا لا نعرف أين سينتهي... شهية عجيبة لا يوقفها شيء على الإطلاق، عن الاستمرار على الكلام، وبصوت مرتفع، وكأن المجلس قد انعقد لسماع محاضرة من طرف واحد، والآخرون عليهم الإصغاء...

أية أنانية هذه؟ أن تحجب عن الآخرين حقهم في المشاركة بالكلام؟ بل إنني أعرف من هذا النمط من الناس من يأتون لزيارتك، وأنت عائد من إحدى رحلاتك إلى الخارج، لكي تحدّثهم عن تفاصيل رحلتك تلك، عن خبرتك ومشاهداتك... عبر تلك الرحلة... فإذا بهم بمجرد أن يستقر بهم المقام يبدؤون حديثاً له

أول وليس له آخر... قد يستغرق الساعات الطوال... ثم وهم يهمّون بالمغادرة يقولون: ولكننا لم نسمع منك شيئاً عن رحلتك؟ فماذا يكون الجواب سوى نظرة مترعة بالتحقير والازدراء لهذا الزائر، الذي لا يملك ذرة من أدب الحوار في المجالس والمنتديات...

هنالك ما هو أكثر لعنة وسوءاً من هذا... تلك النماذج من الناس المتورمة سرطانياً، والمبتلاة بالحديث عن النفس وتمجيد الذات، والتي تسحب المجلس بما فيه ومن فيه للإنصات إلى كلمات الإعجاب بالذات والمنجزات الأسطورية التي حققها المتحدث، وما ينوي تحقيقه في قابل الأيام... ألا يستحق دعيّ كهذا أن نحثو في وجهه التراب ـ كما أمرنا رسول الله ﷺ ـ كي نسكته إلى الأبد؟ وكي لا يتكاثر في مجالسنا بالتوالد الذاتي ـ إذا صح التعبير ـ ذلك أن هذه النماذج السيئة من عبّاد الذات أخذت تتكاثر في مجتمعاتنا بسبب الخلل الذي تعانيه والسوء الذي يحيط بها من كل جانب.

هنالك من لا يعرف شيئاً عن معنى المجاملة... ولم تجرِ الكلمة الطيبة على لسانه... معتقداً أنهما يجرّان إلى النفاق... وشتان... والقرآن الكريم يحدثنا عن سلوك رسول الله ﷺ فيقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]... والحياة المتحضرة تقوم على المجاملة ـ بحدودها المقبولة طبعاً ـ وعلى الكلمة الطيبة... فماذا لو

جرّدناها من هاتين الخصيصتين؟! إذن لأصبحت ساحة للكراهية والجفاء والعزلة والتخاصم... ولفقدت عذوبتها وطعمها الذي يجعلها تستحق ـ فعلاً ـ أن تعاش!!

لا بل إن هناك ما هو ألعن من هذا وأشد سوءاً... أولئك الخبثاء الذين يعلّقون تحت شفاههم أكياساً من سم العقارب، ما تلبث أن تلدغ الآخرين لسبب أو لغير ما سبب، ورسول الله ﷺ يستعيذ من هؤلاء ويقول مخاطباً ربه: «**وأعوذ بك أن أموت لديغاً**»... وأتذكر قول الشاعر:

وفي الناس من فمها عقرب   فيا ويلنا من سموم الشفاه

إن من الناس، الذين التوى سلوكهم، وتعقّد تكوينهم النفسي، وهزمتهم الحياة، أصبحوا في حالة توجّس مزمن... دفاع متواصل، أو ما يظنونه دفاعاً عن الذات الخربة المهزومة، فيسارعون، لسبب أو دونما سبب، في إنزال سمهم في أجساد الآخرين، معتقدين أن حصانتهم الداخلية لن تتحقق إلا بهذا!! قاتلهم الله...

لقد جلست في حياتي مع نمطين من الناس، وكنت أصارحهم القول بأن النمط الأوّل، لو أتيح لي أن أرافقه خمسين عاماً لما تلقيت منه ما يسيء على الإطلاق. وأقول عن النمط الثاني إن خمس دقائق من الجلوس معهم، لا يأمن الإنسان خلالها من لدغات العقارب... فلا حول ولا قوة إلا بالله...

وأما الغيبة، التي يعدّها بعض الفقهاء كالذهبي من (الكبائر)... وأما الرياء... وأما النفاق... فلا يكاد يخلو منها

مجلس من المجالس ـ للأسف الشديد ـ رغم تحذير القرآن الرهيب ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] بهذه الصيغة من أكل لحم الأخ الميت!!

لقد تميّز الإسلام، من بين سائر المذاهب والأديان المحرّفة، بحماية ظهور الآخرين وأعراضهم في غيابهم، لكي يمنحهم الحصانة النفسية والأدبية من الاختراق... ومع ذلك فهنالك الكثيرون ممن لا يكترثون لهذا كلّه، ويمضون بمناشيرهم الحادة لكي يقطّعوا جثث الآخرين، ويأكلوا ـ بالغيبة ـ لحوم إخوانهم الأموات...

وثمة **المكالمات الهاتفية** الطويلة التي تستنزف وقت الآخرين، بل تؤثر حتى على وضعهم الصحي، ـ بالنسبة لمحادثات الهاتف النقال ـ الذي طالما حذّر الأطباء من الإلحاح في استعماله بسبب ما يؤدي إليه من تلف في الدماغ... والجملة العصبية... ومهما حاول الطرف الآخر أن ينهي المكالمة بدقيقة واحدة أو دقيتين... فإن المتحدث لا يمنحه هذه الفرصة، ويستمر على تدفقه في الكلام ما يتجاوز نصف الساعة أو ربما أكثر... وهنالك من المتحدثين الذين يطلبون على الهاتف صاحب الدار، فلا يكون هذا موجوداً، فيعطون ألقابهم لأم البيت على أمل أن يتم التواصل معهم لدى عودة رب الدار... يقولون لها (أبو ياسر) أو (أبو مصطفى) أو (أبو عبد الله)... ويحار الرجل أمام هذا اللغز كيف يصل إلى صاحبه... وهنالك العشرات من معارفه ممن

يحملون هذا اللقب... ألا يتحتم أن يقدم المتحدث اسمه الثنائي الواضح لكي يتم الوصول إليه؟!

هنالك ما يمكن اعتباره كارثة اجتماعية لو أعملنا فيها المعايير الإسلامية... إنها **الولائم** التي يقيمها الأغنياء في مناسبة ودون مناسبة، والتي يتنافسون فيها على (المظهرية)، بأن يقدّموا أكداساً من الطعام تدع الحليم حيران، ليس في صنوفها وأنواعها فحسب، بل في كمّها الكبير الذي يفوق طاقة المدعوين على الالتقام بعشرات الأضعاف... ثم ماذا يتم بخصوصها بعد أن ينفضّ السامر؟ ترمى في حاويات القمامة... فتذهب هدراً... بينما هناك في المقابل الآلاف المؤلفة من المحرومين الذين يتلوون مسغبة وجوعاً؟

ماذا لو تنازل هؤلاء الداعين عن عشق المظهرية واختزلوا دعواتهم... ووضعوا في كل واحدة منها صنوفاً محددة من الطعام، وبالكميات التي لا تؤول إلى حاويات القمامة؟... بينما علّمنا رسول الله ﷺ أن نمسح أطباقنا مسحاً، وألا نترك فيها شيئاً من الطعام... فالذي يحدث نوع آخر من الهدر على مستوى المدعوين الذين يكدّس كل واحد منهم في طبقه أكداساً من الطعام... تفوق قدرته على التهامها بكثير... والنتيجة أن ترمى بقاياها في صناديق الأزبال...

وماذا لو فكر كل غني بالتنازل بين الحين والحين عن إقامة الدعوات الكبيرة للأصدقاء والمقربين وذوي النفوذ والجاه،

وخصّص المبالغ الأسطورية التي تنفق على كل دعوة لكي توزع نقداً على الفقراء والمسحوقين؟... أليس ثمة في هؤلاء من يفكر في الآخرة ويحسب لها حسابها؟! أليس فيهم من قرأ كتاب الله ووضع يديه على هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]... والآيات: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٨]؟

وفي **مجالس العزاء** تمارس جملة من التقاليد الخاطئة، التي أصبحت لتكرارها عرفاً مقدساً؛ يجب أن يحترمه الجميع ويمارسوا طقوسه بأقصى درجات الاحترام والالتزام... قارئ القرآن الكريم يتلو بشكل متواصل، والمعزون منهمكون في الأحاديث الدنيوية بين بعضهم والبعض الآخر... دونما أي اكتراث للآية الكريمة التي تحذّر من هذا السلوك: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]...

يبدو أنهم لا يريدون الرحمة أو يرغبون فيها، ولذا فهم يواصلون أحاديثهم رغم كل شيء... ثم متى يتوقفون عنها، وينفذون آداب الإصغاء؟ عندما يبدأ خطباء اليوم الثالث بإلقاء كلماتهم في تأبين الموتى... هنالك حيث يسكت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير فلا تكاد تسمع من أحدهم كلمة أو همسة... وكأن قدسية الخطباء أعلى مقاماً من كلام الله... وحاشاه...

ليس هذا فحسب بل إن القرآن وهو يتلى تقدمّ خلاله القهوة والسيكائر، فيرتشفها المرتشفون دونما أي تقدير للموقف الذي يوجب عليهم احترام كلمات الله... وإنني أعرف مجموعة من الأصدقاء لا يحلو لهم شيء كما يحلو لهم ذهابهم لمجالس التعزية، وتبادل الأحاديث هناك، وشرب القهوة والسيكائر... فلا يكاد يفلت من أيديهم مجلس واحد على كثرة هذه المجالس وتزايدها السرطاني المخيف!

ليس هذا فحسب، فهنالك مخالفة أخرى لتعاليم الرسول ﷺ التي يطلب فيها من جيران المتوفى أن يشمروا عن ساعد الجد ويتقدموا بما يقدرون عليه من أنواع الطعام لعائلة المتوفى، التي لا تسمح لها ظروفها النفسية والعملية بالتفرغ لطبخ الطعام لمئات المعزين وربما ألوفهم، فهل يستجيب هؤلاء للطلب؟... ويا ريت الأمر يقف عند هذا الحدّ... بل إن مأساة الهدر تتكرر ها هنا أيضاً، أسوة بما يحدث في الاحتفاليات التي سبق الحديث عنها... حيث تكدّس أنواع الأطعمة بكميات تفوق القدرة على استهلاك عشر معشارها... والبقية؟... ترمى في حاويات الزبالة...

ويحدث كثيراً أن يحرج المعزون لدى مغادرة المجلس بسبب إلحاح أهل الميت عليهم بأن يبقوا في أماكنهم ريثما يحين موعد العشاء... رغبة منهم في (سحق) أكبر كمية ممكنة من ألوان الطعام... ومهما حاول المعزون الإفلات من قبضة الزبانية الواقفين لهم بالمرصاد، بسبب من أنهم غير معتادين على تناول

العشاء... أو لارتباطهم بجملة من المشاغل الملحّة... فإن ثمة حاجزاً بشرياً يصدهم عن الذهاب... فماذا لو تم وقف هذه الدعوات الكبرى في اليوم الثالث، وحوّلت المبالغ المصروفة عليها إلى عملات ورقية، توزّع بالعدل والإنصاف على عشرات العوائل التي تنتظر الإعانة، وليس ثمة من يجيب؟

في مقابل هذا أخذت تنتشر في ديارنا **احتفاليات الزواج المختلطة** في قاعات المناسبات، حيث يدخل الخدّام على النساء اللواتي جئن بأقصى درجات التزين والتعطّر... لكي يقدّموا لهن المآكل والمشروبات... وحيث يجيء العريس (المتخنث) لكي يجلس إلى جوار عروسه قبالة المدعوات... وهات يا إبليس الذي يقف منتفشاً في إحدى الزوايا يراقب ما يجري... وما يجري تشيب له سوالف الذين يؤمنون بالله ورسوله... من مداعبات وتبادل الأشواق بين العريس وعروسه... قبالة النساء... وجهاً لوجه... وقد تمتد المسرحية لأكثر من ساعتين أو ثلاث... والعريس (المخنّث) جالس إلى جوار عروسه... يقرصها حيناً... ويقبلها أحياناً... دون أن تختلج له شعرة واحدة من الغيرة أو الرجولة...

في مدينتي الموصل... بدأت الحالة بقاعة واحدة أو قاعتين... لأن معظم الاحتفاليات كانت تتم داخل البيوت... ولكن التقاليد لها حكمها على شرائح من الناس، لم يعد يهمها الالتزام بمطالب دينها وعقيدتها... فإذا بهذه القاعات تتزايد بطريقة

متوالية هندسية... وتصبح بالعشرات... وكلّها تشتغل مستقبلة العرسان يوماً بيوم وأسبوعاً بأسبوع... فلا حول ولا قوة إلا بالله...

إن القضية باختصار تبدأ وتنتهي في ظاهرة **غياب دور الآباء والأمهات** في قيامهم بالالتزام بمسؤولياتهم التربوية، وتوجيههم الديني... وتركهم الحبل على الغارب... فيحدث هذا الذي يحدث، بل إنهم قد يمضون خطوة أخرى في طريق الضلال، فينظرون بإعجاب إلى تصرفات أبنائهم؛ فما يزيدونهم إلّا ضلالاً... دون أن يخطر على بال أحدهم، حديث رسول الله ﷺ حول المسؤولية الثقيلة، التي وضعت على عاتق الآباء والأمهات: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... فالأب راع وهو مسؤول عن رعيته**»... ولكن من يسمع... ومن يجيب؟

وثمة عادة لا تستند إلى أي دليل شرعي، انتشرت انتشار النار في الهشيم عبر علاقاتنا الاجتماعية، تلك هي **تقبيل الرجل للرجل** دون الاكتفاء بمصافحته كما علمنا رسول الله ﷺ... وهذا التقليد السيئ الذي بدأ بقبلة واحدة تحوّل بمرور الوقت وبقوة الانشطار الذاتي إلى ثلاث أو أربع قبلات على الخد الأيمن ومثلها على الأيسر... وإذا أردت إثبات محبتك وإخلاصك أكثر؛ فإن عليك أن تزيد من القبلات... وأنت في هذه الحالة تستغرق وقتاً وتقطع الطريق على الذين يقفون خلفك لكي يؤدوا واجب الأفراح أو الأحزان... فإذا كان (الكيو) الواقف وراءك طويلاً فلك أن تتصور الهدر الزمني الذي فرضناه على أنفسنا.

ولا زلت أتذكر أحد مجالس العزاء الكبرى في مدينتنا حيث لم يبق مكان لجلوس، كيف أن المعزّي يقف في خط طويل من المعزّين، منتظراً دوره... وكيف كان أحد المسؤولين عن إدارة المجلس يصرخ بأعلى صوته: يا ناس... أيها الإخوة... اكتفوا بالمصافحة... دون تقبيل... أيها الإخوة إن وراءكم المئات والآلاف... أعطوهم الفرصة لكي يؤدوا واجبهم وينصرفوا... فهل أنصت إليه أحد؟! أغلب الظن أن قلّة فقط هي التي لبت النداء... بينما لم يكترث الآخرون باستغاثاته وراحوا يطبعون القبلات الثلاثية على خدود أهل الميّت...

ويزيد الأمر سوءاً أن أحد الطرفين قد يكون مصاباً بالزكام... أو مبتلى بمرض معدٍ؛ فإنه بالتقبيل الثلاثي أو الرباعي قد يفتح بوابة السوء على أولئك الذين احتضنهم وطبع على خدودهم القبلات... ويتساءل المرء... ترى متى نكف عن هذا التقليد الذي ما أنزل الله به من سلطان؟!

وترتبط بالمناسبات الاجتماعية والاحتفاليات مسألة أخرى قد لا تقل سوءاً وإحراجاً... إنها **تبادل الهدايا العينية**، التي تتكدس لدى المحتفى بهم حتى لا يكاد يبقى ركن في البيت إلا وحشرت فيه... وحيث يتحتم عليهم أن ينقلوها إلى السوق لتخمين أسعارها... لأنه سيكون من غير المقبول أن ترد على الهدية المقدمة لك بأخرى أقل ثمناً منها... ولا بدّ مع هذا وذاك من

فتح دفتر تسجل فيه أنواع الهدايا وأقيامها لكي لا يقع النسيان... وتلك طامة كبرى... ألّا تقدم شيئاً لمن قدموا إليك!!

فماذا لو أعلن على شاشات التلفاز عن وقف هذه الظاهرة، والتحوّل إلى تقديمها نقداً وتسلمها نقداً... ألا يخفف هذا عبئاً كبيراً على الطرفين، ويجعلهما يتنفسون الصعداء؟

أما عن **الدَّين، وإهمال تثبيت الحقوق كتابة** كما أمر الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]... وأما عن ضياع الديون إلى الأبد في جيوب المستدينين... وأما عن عدم التذكير بها ـ على الأقل ـ أو الالتزام بمواعيد السداد... فحدّث ولا حرج... وأعرف الكثيرين ممن يستدينون من الآخرين، إذا طلبت منهم ـ على استحياء ـ أن يكتب الدين... أجابوك بغير ما حياء أنه ليس ثمة ضرورة لذلك... فكيف ترجو منهم أن يذكروك به بين فترة وأخرى... أو أن يلتزموا بمواعيد السداد أساساً؟

طبعاً إذا كان المستدين معسراً ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ [البقرة: ٢٨٠] كما يعلّمنا كتاب الله... ولكن ماذا لو تمكن المستدين من السداد فلم يؤد ما عليه؟!

إنها إذا أردنا الحق ليست حالة فردية تعدّ على أصابع اليدين، ولكنها حالة تكاد تتكرر مع كل مستدين... الواجد منهم وغير الواجد...

وأتذكر في هذه المناسبة شخصاً ذا عطاء... أنعم الله عليه

بقدر من المال بسبب جدّه ونشاطه، فقرر كسباً للأجر وشكراً لله على نعمائه أن يرتب صندوقاً خاصاً سماه صندوق القرض... يخرج منه المبلغ المناسب لكل ذي حاجة يسعى إلى الاستدانة من الآخرين... وكان يقدّم قروضه بسخاء، ولكن بشرط واحد أن يرجع المال في الموعد المضروب، لكي يدور على أكبر قدر من المحتاجين... ولكن الرجل بعد الجولة الأولى التي استنفذت صندوقه تبيّن له أن المال المدان لن يرجع إليه... لا في الموعد المضروب... ولا في غير المضروب. فما كان منه إلّا أن يلغي المشروع محملاً خطيئة وقفه على المستدينين، الذين لم يعودوا يأبهون لإعادة حق أو الالتزام بوعد...





أخطاء في نشاطنا الفكري والثقافي والدعوي

أما أخطاؤنا في سلوكنا، أو نشاطنا الفكري والثقافي والدعوي... فحدّث ولا حرج... ولا يدري المرء وهو يستعرضها في ذاكرته من أين يبدأ وأين ينتهي؟...

إذا كنا لدى حديثنا عن أخطاء سلوكنا التعبّدي قد أشرنا على ثلاثين خطأ... وعلى خمسين خطأ في سلوكنا الاجتماعي... ترى كم من الأخطاء التي سنؤشر عليها في سلوكنا الفكري والثقافي والدعوي؟... لنرَ..

ولنبدأ بالمحاضرات والدروس الملقاة في المساجد والجامعات والندوات والمؤتمرات والمؤسسات العلمية والثقافية... حيث نلتقي بمحاضرين يتقبلون المهمة دون تردّد، بل يسارعون إليها، ويتوسّلون بالقائمين عليها دون أن يبذلوا جهداً كافياً... جهداً ولو في حدوده الدنيا للقراءة المتواصلة بخصوصها، من أجل تحسينها وإعدادها إعداداً جديراً بالإنصات إليها وعدم تضييع الساعات الطوال لحضورها...

دروس ومحاضرات رتيبة، مملة، مترعة بالتكرار، والإنشائيات، التي لا تنطوي على أي تصميم فكري، ودون أن تقدّم أية إضافة جادة للموضوع الذي تعالجه، بل تمضي لمعالجة قضايا مستهلكة، يغيب فيها المنهج، ويضطرب ترتيب الأولويات... لا بل كثيراً ما يحدث وأن تخرج المحاضرة عن محاور الندوة أو المؤتمر؛ فلا تمسّها من قريب أو بعيد... ويزيد الأمر سوءاً أن المتحدث يقرأ محاضرته على الورق، فيما يدفع المستمعين والمشاركين إلى الملل والإحساس بالقرف، دون أن يكلّف المحاضر نفسه، بترتيب منظومة من نقاط الارتكاز في ذهنه، ثم يمضي في ضوئها متحدثاً للجمهور، الذي سيجد نفسه مشوقاً للإصغاء إليه من خلال أدائه الشفاهي وممارسته الفيزيولوجية في الحركة المطلوبة التي تجعل هؤلاء معلّقي الأبصار بما يقول...

إن الكثيرين من المحاضرين، والمتحدثين، يميلون إلى «الأسهل»، فلا يبذلون أي جهد لتحسين أدائهم، ويجيئون إلى المناسبة خطباء ووعاظاً وليسوا مفكرين أو محاضرين، فيما يضطر المرء للمقارنة بينهم وبين الغربيين، الذين يسهرون على إعداد محاضراتهم الأسابيع الطوال، من أجل أن يقدّموها بالصيغة التي تستحق أن يبذل المستمعون الحضور للإنصات إليها... ويتذكر حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»، وحديثه الآخر «**كتب الله الإحسان في كل شيء**»... ولكن ماذا تفعل مع الكسالى والقاعدين، الذين يتمنون أن

يقدموا على كل ممارسة دون أن يبذلوا معها أي جهد على الإطلاق؟!

وقد يكون الخطأ من الجهات الداعية، بسماحها في تمرير بحوث كهذه في الندوات والمؤتمرات... دون أن يبذل القائمون عليها هم الآخرون أيّ جهد في قراءة ما يصلهم من بحوث من أجل تمحيصها، ووقفها عن المرور إلى المنصة... والمشكلة مرة أخرى في الكسل وعدم الرغبة في أخذ الأمور بالجدّ المطلوب...

وطالما رفعت صوتي في مواجهة القائمين على الندوات والمؤتمرات قائلاً بأن أكثر من نصف البحوث الملقاة لا علاقة لها من قريب أو بعيد بمحاور الندوة أو المؤتمر... ليس هذا فحسب، بل إنها لا ترقى بأي معيار من المعايير الأكاديمية والعلمية لأن تكون بحوثاً تلقى على المنصّات... فهل استُجيب للاعتراض؟!

وقد يكون الخطأ أحياناً في جمهور الحضور نفسه، فبعضهم يريد أفكاراً وبعضهم الآخر يريد وعظاً... بعضهم يريد الطرح بصوت هادئ رزين، وبعضهم الآخر يريد صياحاً وصراخاً وفحيحاً... وبين الفئتين اللتين حفر بينهما خندق عميق... يضيع الكثير من المحاضرين، الذين لا بدّ وأن يقودوا جانباً من جمهورهم إلى التثاؤب والملل والخروج على آداب الإنصات... بل وترك القاعة ومغادرة المكان قبل انتهاء المحاضرة...

وقد يكون المحاضر جيداً، أعدّ للأمر عدّته، لكنه ما يلبث أن يضيع نفسه، والمستمعين معه، للحديث في كل موضوع، والخروج

بين الحين والحين، عن نقاط الارتكاز التي حدّدها في ذهنه، معتقداً أنه بذلك يعرب لمن يجلسون قبالته عن فضائه المعرفي الواسع، الذي لا يأسره قيد ولا تحدّه حدود... وما هكذا يا سعد تورد الإبل ـ كما يقول المثل ـ بل إن بعض هؤلاء الذين أسرتهم (الأنا) ينتهزون الفرصة للحديث عن منجزاتهم الذاتية، وأعمالهم المتنوعة، ومشاريعهم الفكرية، وينساقون، ربما دونما إرادة منهم، وراء الاستجابة لهذا الإحساس المرضي بالذات... فيعطون المسائل الثانوية أكثر بكثير مما تستحقه، على حساب القضايا الأكثر أهمية وارتباطاً بموضوع المحاضرة... ومفرداتها...

وثمة خطيئة أخرى تتمثل في وضع المحاضر أو الداعية نفسيهما في غير موضعها، فيقبلون كل عرض يقدم إليهم من هذه الجهة أو تلك للتحدث في موضوعات قد لا تكون لديهم أية خبرة للخوض فيها... فإذا بهم يضربون ذات اليمين وذات الشمال، ويفترسون من الحضور ساعة أو ساعتين دون أن يقدّموا لهم شيئاً ذا بال... شيئاً يمسّ الموضوع الذي جيء بهم من أجل التحدث في مفرداته وإغنائه بالمزيد من الإضاءات...

❁ ❁ ❁

وقد يزيد الأمر سوءاً أن المناقشات التي تعقب إلقاء المحاضرات يسعى أصحابها لتأكيد الذات لا لتأكيد الحقيقة... وقد تمتد المدخلات لتغدو ما يمكن تسميته (بمحاضرة داخل المحاضرة) على غرار مصطلح (المسرح داخل المسرح)، فتفترس

وقت المناقشين الآخرين... وعبثاً ترتفع الأصوات والصرخات بكفّ هؤلاء عن الاستمرار في إلقاء محاضرتهم (الإضافية)... ولكن دون جدوى... ثم إن كثيراً من هذه المداخلات تطرح أسئلة وقضايا لا علاقة لها بموضوع المحاضرة، فتضيّع وقتاً آخر على المحاضرين... بل إن البعض ممن في قلوبهم مرض يتعمدون إثارة الأسئلة والمداخلات الملتوية لإحراج المحاضر... فيزيدون الأمر سوءاً...

وبعض الذين يتولون تقديم هذا المحاضر أو ذاك يبالغون في إطرائه، ويعرضون على الحاضرين سيرة حياته العلمية ومنجزاته كاملة، فيما يكاد يذهب بأجره عند الله... ويفترس شيئاً من وقت الآخرين...

❁ ❁ ❁

أما تقنيّات الإخراج الصوري أو الصوتي للمحاضرات الإسلامية، وجملة الأخطاء والمطبّات التي تقع فيها، فحدّث ولا حرج، فيما يكاد يضيّع جهد خمسين دقيقة من الحديث الذي سهر على إعداده المحاضرون... بل إنه يحدث في كثير من الأحيان أن صوت المتحدث لا يكاد يصل إلى معظم الحضور الذين يجلسون في الخطوط الخلفية... فلا يكادون يفقهون شيئاً مما يقال على المنصة... ويغادر المحاضر موقعه فرحاً سعيداً بإنجاز مهمته، فإذا به يفاجأ بأن صوته لم يصل إلى معظم

هؤلاء... وإذا به يتلقى (برميلاً) من الماء البارد يصبّ على رأسه بعد إذ رأى ضياع جهده ذاك!!

بإيجاز شديد، فإننا في العديد من محاضراتنا في الندوات والمؤتمرات والمساجد والجامعات، نمارس ما ابتُليت به هذه الأمة زمن تقهقرها الحضاري... ألا وهو الهدْر... حيث التبذير في الجهد والزمن والإمكانات المادية... يقابله حصاد قليل لا يكاد يذكر إزاء ما بُذل من أجله...

وثمة ـ بعد هذا كلّه ـ جملة من الأخطاء التي نمارسها في أنشطتنا الفكرية والثقافية والدعوية... سأكتفي ـ عبر هذه الصفحات ـ بالتأشير عليها خشية الإطالة... سيما وأن الكثير ممن تعاملوا مع هذه الحقول إرسالاً واستقبالاً... يعرفونها جيداً، وقد اكتوى معظمهم بنارها اللاذعة...

فهنالك ـ على سبيل المثال ـ مفكرون ودعاة ذوو قدرات متميزة يضيعون في مطالب الحياة العملية، وعمليون يضيعون في محاولات خائبة في الفكر والتنظير والتأليف... ورسول الله ﷺ يعلّمنا أن «**كل أمرئ ميسّر لما خلق له**»، فلو انصرف أولئك إلى تقديم عطائهم في الفكر والدعوة، ويمّم هؤلاء وجوههم صوب مطالب الحياة العملية... لوضع كل شيء في محلّه... ومضت عجلة حياتنا على أحسن ما يكون...

هنالك **غياب مفهوم العمل والإنجاز** عن عقول ووجدان الكثيرين، رغم ارتباطه بمقتضيات الإيمان، حيث لا إيمان بلا

عمل... كما تؤكده عشرات بل مئات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية... لكنها الرؤية الإرجائية الخاطئة، التي فكت الارتباط بين القطبين... وقبل ذلك... إنه الكسل الذي كفّ أيدي الأمة عن العمل والإنجاز المتواصل، منذ لحظات تفتح الوعي على الحياة وحتى تدسّ أنوفنا في التراب... فالحياة الدنيا فرصة محدودة للاختبار، وبعدها لا ينفع الندم... ولا يستجاب للدعاء الحارّ بالعودة ثانية لتصحيح الأخطاء... ولقد علّمنا رسول الله ﷺ بقدرته المدهشة على الإنجاز كيف يتحتم أن يكون المسلم الجادّ في هذه الدنيا... واختاره الباحث الأمريكي (مايكل هارت) في كتابه (المائة الأوائل) كأعظم شخصية في التاريخ على الإطلاق... بم؟ بقدرته المدهشة على الإنجاز الديني والدنيوي معاً...

ومع غياب مفهوم العمل والإنجاز، هنالك **التخلّي عن الأخذ بالأسباب**... حيث ها هنا يكمن السرّ في صعود الأمم والحضارات، وفي انهيارها... وحيث علّمنا الرسول ﷺ كيف أنه كان يأخذ بالأسباب في كل خطوة يخطوها، من أجل ضمان النتائج المترتبة عليها... إن سيرته كلها تجيء شاهداً يؤكد مصداقية ما نقول...

يرتبط بهذا وذاك **عدم التوظيف الجيّد للزمن**، واستغلال الطاقات في حدودها القصوى... فنحن زمن انكسارنا وتخلفنا من (أشطر) الأمم في قتل الوقت، وتجميد الطاقات، أو تعطيلها... للأسف الشديد، ولهذا انحدرنا إلى الحضيض بينما عرف الآخر كيف يوظف الاثنين، فتفوّق علينا... ولطالما سألت عدداً من

الشباب وأنا أراهم يهرعون للذهاب إلى المقاهي والكازينوات... إلى أين أيها الشباب؟... فيكون جوابهم المعلّق على ألسنتهم إلى المقهى لقتل الوقت... هكذا. وبدون أي قدرٍ من الإحساس بأنهم يمارسون ذبح أنفسهم بأنفسهم...

هنالك **الانفصام المحزن** بين حقائق الدين وثوابته وبين الحالة النفسية المترعة باليأس والإحباط والهزيمة... بين تعاليم القرآن التي تؤكد أن المستقبل لهذا الدين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١] وبين الانكسار للهزائم الموقوتة... بين مفهوم (المداولة) بين الناس ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠] وبين غسل اليد من المصير... بين تأكيدات القرآن المتواصلة على أن حصاد الجهد ليس بالضرورة أن يكون في الحياة الدنيا، بل هو هناك في الآخرة، حيث لا يُغفل عن مثقال ذرة من خير أو شر وحيث يوجه هذا التحذير لرسول الله ﷺ نفسه: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] وبين استعجال الحصاد في الدنيا... فإن لم يتحقق دخلنا دائرة اليأس والإحباط.

يرتبط بهذا **اجترار الأحزان والهزائم والخبرات السلبية** عبر تاريخنا الإسلامي، والاستسلام للموروث التاريخي، رغم أن القرآن الكريم يحذرنا من ذلك مرتين ويحرّرنا منه، فيما ورد في سورة البقرة: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا

كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، ورغم أنه أدان الجاهليين لتشبثهم بتاريخ الآباء والأجداد المترع بالشروخ والأخطاء: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤]، ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس: ٧٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

هنالك **تغليب الجدل النظري على المطالب العملية الملّحة**، واستنفاد الطاقة بالجدل والنقاش، وإثارة المسائل الخلافية الجزئية، وتجاوز آداب الخلاف... رغم أن رسول الله ﷺ حذّرنا من هذه الممارسة بقوله: «**هلك المتنطعون**»، وقوله «**انما أهلك من كان قبلكم إلحاحهم في الجدل**».

وثمة **رفض الجهد الفردي** بحجة أولوية العمل الجماعي، وبالعكس، رغم خطيئة اعتماد مبدأ (إما هذا أو ذاك) وضرورة استبداله بمبدأ (هذا وذاك)، حيث لا ينفي أحد القطبين الآخر، وإنما يتممان بعضهما بعضاً، ويسعيان لتقديم ما عندهما من خبرات جنباً إلى جنب في خدمة وتعزيز النشاط الدعوي.

هنالك **الصراع والتطاحن بين الفئات والجماعات الإسلامية**، فيما يقود إلى تفتيت الطاقات، وفتح الطريق أمام خصوم هذا الدين لكي يضربوا ضربتهم، ويعززوا مواقعهم، ويهدموا بنيان هذا الدين، فيما شهدناه ونشهده فيما تعرضه الساحة العربية والإسلامية من مآسٍ وويلات، في الوقت الذي يتحتم علينا جميعاً

أن نتقبل الخبرات المختلفة داخل الدائرة الإسلامية، وعدم التشنج على الرؤية الأحادية العوراء، وادّعاء احتكار الحقيقة، واتهام الآخر بالباطل...

وثمة **عدم رصد الآخر من أجل إعادة ترتيب الأولويات**، واتخاذ الردود الأكثر ملاءمة، والتعامل الواعي معه... وعدم منحه الفرصة لأن يبدأ هو الفعل، ويسوقنا مرغمين إلى اتخاذ موقف ردّ الفعل، حيث تكون الهزيمة لا محالة...

هنالك **غياب الوعي بسنن الله العاملة في التاريخ**، وبمطالب اللحظة التاريخية... حيث يتحتم اتخاذ الإجراء المناسب لمطالب اللحظة... فلا نرفع راية الجهاد في الوقت الذي يتطلب عملاً سياسياً، ولا نلجأ إلى العمل السياسي في الوقت الذي يتطلب جهاداً... ولا نمارس العمل التربوي في الوقت الذي يتطلب عملاً سياسياً، أو حركة جهادية... لقد ذبحتنا إجراءاتنا المضادة لمطالب اللحظة التاريخية، وأعطت خصومنا الفرص الذهبية للإمساك بنا من رقابنا.

هنالك أيضاً **عدم الاهتمام الجاد بالخطاب الأدبي والفني**، وضرورة توظيفه في الخطاب الإعلامي، لأنه الأكثر قدرةً على مخاطبة ملايين الناس، والتأثير فيهم... إن فيلماً كالرسالة الذي أخرجه مصطفى العقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي تهافت على مشاهدته الغربيون في عواصمهم الكبرى، منحهم القناعة بعظمة شخصية نبي الإسلام ﷺ وعدالة قضيته، وساعد على إزالة جانب من ذلك

الجدار السميك، الذي أقامته الحركة الصهيونية بين المسيحيين الغربيين وبين هذا الدين...

وثمة خطيئة **عدم الرضا بما هو كائن وممكن**، من الحلقات الإيجابية، أو رفضها، بحجة البحث عما يجب أن يكون... فإن إقامة الدولة الإسلامية، وهي مسألة يتفق عليها جميع العاملين في حقل الدعوة، لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة... لا تنفي الحلقات الأخرى من الأنشطة التي تسبق ذلك... وهي حلقات ضرورية لا بدّ منها للتمهيد لإقامة الدولة، التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تقوم على الفراغ، أو تهبط هدية من السماء... وما يقال بأن أي جهد بعيد عن إقامة الدولة أو ممهد لها يسعى إلى الوأد من قبل السلطات الحاكمة؛ ليس قدراً نهائياً بحال من الأحوال.

هنالك **غياب الفهم الدقيق لمطالب العصر وتحدّياته...** وضبابية الفهم للمشروع الحضاري الإسلامي... فنحن على سبيل المثال سنقع في الخطأ عندما نسعى إلى تقديم مشروعنا هذا للآخر... قبل أن نتحقق به ذاتياً، ونطبقه على أنفسنا، من أجل أن يكون وسيلة إيضاح مؤثرة في الأطراف الأخرى... ونحن ـ على سبيل المثال ـ سنقع في الخطأ عندما نتصور إمكان إعلان الجهاد على الغربي الذي يفوقنا في قدراته العسكرية والتقنية أضعافاً مضاعفة... بدلاً من أن نغزوه بقوة فكرنا وعقيدتنا وإرهاصات مشروعنا الحضاري.

والسبب في هذا كلّه هو عدم توظيفنا للسقف العالي لفقهنا

الإسلامي العظيم: الفقه المقاصدي، وفقه الموازين، والأولويات، والمصالح المرسلة، وسدّ الذرائع... إننا نملك آليات عمل مدهشة في تعاملها مع الوقائع، والمتغيّرات والتحديات... وهي قديرة بخصبها وفضائها الواسع على أن تقدّم الإجابة على كل سؤال... وتعين الدعاة على تجاوز كل معضلة... وتفتح أمامهم الطريق عريضاً واسعاً... لاستيعاب أية مشكلة على الإطلاق... وتقديم الإجابات المنضبطة عليها...

إننا ـ للأسف الشديد ـ ومنذ زمن انكسارنا الحضاري، لم نعد نعرف كيف تكون الإفادة القصوى، والتوظيف في حدوده العليا للتوجهات العقدية والتشريعية، التي وجدت في الفقه المقاصدي آليات عملها في قلب العصر، لكي تطلع على الناس بحلول مدهشة في تساوقها المنضبط مع المطلوب... بل إننا لا نعرف كيف نحدّد أولويات الحاجات والضرورات المعرفية والدعوية في ضوء الإمكانات المتاحة. وقد ضيّع هذا علينا الكثير من الفرص وأدخلنا حالة يكتنفها الضباب والغموض.

هنالك ثالثة الأثافي: **دعاة يشلّهم الخوف والبحث عن السلامة** في كل فاعلية، قبالة متهوّرين يعرّضون أنفسهم للموت في أمور لا تستحق التفريط بقلامة ظفر...

ونحن نعرف أن التوجّس الزائد حالة لا قاع لها، تمضي بالإنسان الخائف بعيداً عن المطلوب، بنوع من الوسواس التسلطي في كل تصرفاته، حتى تلك التي لا تستدعي توجّساً أو خوفاً،

فيرفض بالتالي القيام بأية مهمة يعهد بها إليه، بحجة أنها قد تقوده إلى التهلكة...

لقد التقينا بأناس عديدين يمارسون الكتمان الزائد المثير للشبهة في أبسط الأمور، فيوقعون أنفسهم والآخرين في مصيدة الأجهزة الأمنية، من حيث أنهم يريدون الابتعاد عن أذاها... وأعرف صديقاً كان يزورني في المتحف بين الحين والحين متأبّطاً إحدى المجلات الممنوعة، فإذا به قبل أن يصل إلي يتلفت بتوجّس ذات اليمين وذات الشمال، خشية أن يكون مراقباً من جهة أمنية... فأقول له هوّن عليك يا هذا، وافعل العكس، إذا أردت أن تضمن السلامة: قل لي وأنت تدخل علي وبأعلى صوت ها قد جئتك بالمجلة الفلانية!! إن لفتاتك الحذرة هذه هي التي تجلب عليك الشبهة وليست المجلة.

وبالمقابل، هنالك **دعاة يفتقدون ألف باء الإحساس الأمني**، فيتصرفون على نيّاتهم بطريقة قد تلحق بهم وبالآخرين الأذى... وكثيراً ما زارني أصدقاء من خيرة الدعاة، وبمجرد أن يجدوا عندي زائراً يتحدث في القضايا الإسلامية، اطمأنوا إليه، وراحوا يكشفون أوراقهم أمامه، دونما أي قدر من الحرج... إن غياب الحسّ الأمني على مستوى الأفراد والجماعات الإسلامية لهو خطيئة كبرى نمارسها بحق أنفسنا، ولقد خسرنا بسببها الكثير للأسف الشديد.

وثمة **سوء توظيفنا للفرص الذهبية** التي منحنا إياها هذا

الدين من أجل أن نمضي بدعوتنا إلى أبعد الآفاق، ومن أجل مزيد من الحلول الناجعة لمشاكلنا الاجتماعية...

إننا نتعامل مع **الزكاة والصدقات** دونما أي قدر من التخطيط، فتذهب في كثير من الأحيان، إلى غير غاياتها الأساسية... تتكدس هنا وتشحّ هناك، وتفتقد التوزيع العادل، الذي أمر الله به ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)... لقد أراد هذا الدين بهاتين الفعاليتين تحقيق مجتمع العدل الاجتماعي وتكافؤ الفرص، ورفع مستوى الفقراء والمسحوقين إلى حالة الكفاية... وتغطية الحاجات الدعوية الملحّة من أجل جعلها ذات كفاءة أعلى... ولكن الذي يحدث في معظم الأحيان، عدم الاكتراث بهذه المطالب الضرورية، وتوزيع الزكوات والصدقات على غير هدى... بينما هي لو أُحسن التعامل معها فإنها ستفعل الأفاعيل...

وكثيرون ممن تفيض لديهم الصدقات يلجؤوون إلى انفاقها على بناء المساجد والجوامع، دون أن يفكروا بإمكان انفاقها على أمور لا تقل أهمية وأجراً عن بناء الجوامع، التي كثيراً ما يحدث وأن تتكدس في الحي أو الزقاق الواحد فيما يفيض عن حاجة أهله... فلو أنها أنفقت في بناء مجمعات خيرية للأيتام... أو مكتبات إسلامية لتوعية الناس وانتشالهم من حالة الجهل... أو لتحفيز نشر الكتاب الإسلامي الذي لا يجد مؤلفوه المبدعون الفرص المتاحة لنشره... أو لدعم المجاهدين الذين نذروا أنفسهم لمقارعة السلطات الجائرة، والاستعمار اللئيم... لكان ذلك أكثر جدوى، وربما

أكثر أجراً عند الله ﷻ، من بناء مسجد أو جامع قد لا تكون الحاجة ماسة إليه بسبب من وجود صنو له في نفس المكان...

ومع الزكوات والصدقات هنالك (**الوقف**)، تلك المؤسسة الكبرى التي مارست عبر تاريخنا الإسلامي دورها الفاعل في إقامة المؤسسات التعليمية، والبؤر الجهادية، وتغطية حاجات الفقراء والمعوزين، بل إنها في العصر الحاضر، وفي الساحة التركية على سبيل المثال، ساهمت مساهمة فعالة في إنشاء ودعم اثنتين من أكبر الحركات الإسلامية في العالم: النورسيون، والرفاهيون وامتدادهم بحزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا... إن مؤسسة الوقف إذا أُحسن التعامل معها فإن بمقدورها أن تفعل الأفاعيل...

أما **الحج والمناسبات الدينية** التي هي أشبه بمؤتمرات دورية، يجتمع فيها المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فإن الحديث فيها يطول، وهي الأخرى تعاني من سوء التخطيط وتقديم الأهم على المهم على الأقل أهمية... ومن عدم توظيفها بالتالي في أقصى طاقاتها الممكنة... فالذي يحدث هو التوظيف في حدوده الدنيا... وكان يمكن لو أُحسن التعامل معه، أن يرتفع بوتائره إلى القمة، التي تمنح المسلمين فرصاً ذهبية، ليس لرفع خطابهم فحسب، بل لتبادل الرأي في حل مشاكلهم السياسية والاجتماعية والدعوية والثقافية على امتدادها وتشعبها...

ودائماً نقول نحن أمة عرفت عنها شطارتها في تضييع الفرص، وعدم توظيفها في حدودها العليا... نحن دائماً نتحرك

عند السفوح... ونترك للآخرين أن يتسلقوا القمم الشاهقة، من أجل أن يضعوا أقدامهم على رؤوسنا للأسف الشديد... نحن الأمة التي أريد لها أن تكون الشاهدة على البشرية في المسير والمصير، وأن يكون الرسول القائد شاهداً عليها!!

في هذا السياق ـ كذلك ـ هنالك فرص ضائعة في توظيف (**المكتبات الشخصية**) للصالح العام... فما أكثر الذين يبذلون عبر حياتهم المديدة جهوداً استثنائية في تشكيل مكتباتهم الشخصية، التي انتُقيت كتبها بعناية فائقة وحرص مدهش، لكنهم عندما يموتون، تتشتت هذه المجموعة من الكتب، بيد أبناء لا حظّ لهم من الثقافة، فيعرضونها للبيع بأرخص الأسعار... أو يتركونها للتمزق والتلف... وكان يمكن لأصحابها قبل أن يختطفهم الموت أن يوقفوها في المكتبات المركزية في بلدانهم، لكي تكون بمثابة العلم الذي ينتفع به، كما أوصى رسولنا ﷺ، تفيد منه أجيال من الطلبة والدارسين، ويبقى يحمل اسم الواقف تخليداً لذكراه...

حتى إذا جئنا إلى **إشكاليات التخصّص المعرفي**، فإننا سنجدها تعاني هي الأخرى من جملة من المشاكل... بدءاً بغياب دور الآباء، أو إصرارهم على توجيه أبنائهم للتخصص في الفروع العلمية بدلاً من الإنسانية، رغم الحاجة الماسّة إليها...

صحيح أن التخصص في العلوم الصرفة (الرياضيات والهندسة والكيمياء والفيزياء وعلوم الحياة وطبقات الأرض... الخ) يعدّ من الضرورات الملحّة في نهضة الأمم، ولكن شرط أن تهيأ الظروف لكي يبدعوا ويكتشفوا ويخترعوا ويضيفوا جديداً... أما أن

يتكدس هؤلاء، دون أن تكون لديهم القدرة، بل حاسّة الكشف والابتكار، عند بعضهم، على حساب ترك التخصصات في المعارف الإنسانية... بحثاً عن ضمانة مالية أكبر، ومكانة اجتماعية أفضل، فذلك هو المرفوض...

ذلك أن الغربيين المتفوقين يقودون الفكر العالمي ويغزوننا بعلومهم وخبراتهم الإنسانية، المنشقة عن مطالب الايمان بالله واليوم الآخر، والتي مارست دورها الخطير في تخريج نخب علمانية، أو لا دينية، في ديارنا، تسلّمت مفاصل السلطة، وساقت الأمة إلى التبعية الفكرية... والضياع...

فعلوم الاجتماع والنفس والإدارة والسياسة والاقتصاد والآثار والتاريخ والجغرافيا والآداب والفنون والإعلام، التي قدّمت لأجيالنا من وجهة نظر علمانية وأحياناً مادية، بدءاً من المدارس الابتدائية وصولاً إلى المعاهد والجامعات... فعلت كما يقول ليوبولد فايس (محمد أسد) فعل السم في تكويننا الثقافي، وجعلته يبتعد شيئاً فشيئاً عن تأسيساته وثوابته الإسلامية...

وأخيراً جاءت حركة التأصيل الإسلامي للمعرفة، لكي ترد الأمور إلى نصابها الحق، وتجعل هذه العلوم تبني وتقوم منطلقة من تأسيساتها الإسلامية في النفس والاجتماع والإدارة والسياسة والاقتصاد والآثار والآداب والفنون والإعلام... بينما ظلت المساحات الأوسع من حركة التربية والتعليم في ديارنا تبحر في الاتجاه المضاد، وتخرّج النخب العلمانية، التي تتسلم مفاصل

الإدارة والقيادة السياسية، من أجل أن نستمر على حالة الضياع والتخبط، التي تمكّن الخصم من الإمساك برقابنا.

وبسبب من سوء التخطيط هذا، وعدم اكتراث الآباء في توجيه أبنائهم إلى التخصص المطلوب؛ وجدنا أنفسنا إزاء شحّة ملحوظة من حضور الإسلاميين في علوم التاريخ والآثار والإعلام والسياسة والاقتصاد والآداب والفنون... بحيث أن حركة الأدب الإسلامي التي تبنتها مؤسسة كرابطة الأدب الإسلامي العالمية، أصبحت من الأمور الموجبة لتحقيق التوازن المطلوب، تماماً كما فعلت حركة التأصيل الإسلامي للمعرفة التي تبناها (المعهد العالمي للفكر الإسلامي)... ومع ذلك فإن تيارات الآداب والفنون في سياقاتها وتوجهاتها كافة، بما فيها الحداثيون والعلمانيون، يكادون يغطون معظم مساحات الفاعلية الأدبية والفنية في عالمنا العربي والإسلامي... للأسف الشديد.

هنالك أيضاً ذلك **الفصام النكد، والعزلة المرفوضة، بين حلقتي العلوم الإسلامية والإنسانية**، حيث تمضي أولاهما دون أيما قدر كافٍ من الإلمام بالمعارف الإنسانية، على الأقل كآليات لتعزيز الخطاب العقدي المعاصر... وتمضي ثانيتهما دونما أي قدر كاف من الإلمام بالعلوم الإسلامية، التي تعدّ من ضرورات المتخصص بالعلوم الإنسانية، بسبب من الارتباط الوثيق بين المعرفتين... وهذا هو الآخر ما تحاول حركة التأصيل الإسلامي للمعرفة أن تتجاوزه، بإقامة معاهد وجامعات تسعى لأحداث اللقاء

والوئام والتكامل بين معارف الوحي والمعارف الإنسانية... من أجل تمكين الطرفين من أداء مهمتهما على الوجه الأفضل...

وثمة تلك **العزلة الباردة في دائرة التخصّص ورفض مبدأ الثقافة الشمولية، أو التكامل المعرفي**، الذي يعدّ اليوم من الضرورات القصوى في تكوين العلماء القديرين على العطاء والإبداع.

إن الحاجة الأكاديمية والثقافية إلى التحقق بمبدأ التكامل المعرفي؛ أصبحت أشدُّ إلحاحاً، بخاصة بعد ذلك الاندفاع المرتجل وغير المدروس باتجاه الاكتفاء بالمعرفة التخصصية، في هذا العلم الإنساني، أو الإسلامي، أو ذاك. بل والذهاب أبعد باتجاه ما أطلق عليه التخصص الدقيق، الذي يعني الإلمام بهذه الحلقة أو المفردة أو تلك من حلقات ومفردات هذا العلم أو ذاك. وهي مسألة ضرورية بكل تأكيد من أجل إتاحة الفرص المعمقة للكشف والإضافة والإبداع في ذلك المجال.

ولكن هذا لا يبرّر ـ بحال من الأحوال ـ الاعتقال في خانة التخصّص الدقيق، الذي لا يملك معه أصحابه فضاءً علمياً واسعاً، ولا خزيناً ثقافياً خصباً، يمكنهم ليس فقط من المزيد من الإبداع في مجال تخصصهم الدقيق، بل والحضور المؤكد في ساحات الثقافة والقدرة على إرفادها بالمزيد.

إننا نتذكر هنا علماء الرياضيات والفيزياء والكوزمولوجي الكبار (أينشتين وشرودنجر والفرونورث وايتهيد وبرتراند رسل)،

كما نتذكر فلاسفة العلم الكبار (ألكسيس كاريل، وسوليفان، وأغروس وستانسيو وهويل وغيرهم كثيرون)، بل إننا نتذكر أجدادنا الكبار زمن تألقنا الحضاري (الغزالي، ابن حزم، ابن خلدون، ابن تيمية، ابن سينا، الخوارزمي، أبو حيان، ابن الهيثم وغيرهم كثيرون)... كانوا جميعاً يملكون رؤية معرفية متكاملة، مكّنتهم ليس فقط من الإمساك جيداً بحلقات تخصصهم الدقيق، وتقديم الكشوف المدهشة في مجاله؛ وإنما منحتهم الفرصة للإسهام الفعال في معترك الحياة العلمية والثقافية على امتدادها.

ونتذكر ـ قبالة هذا ـ حشداً هائلاً من المتخصّصين في العلوم الإنسانية أو الإسلامية، من حملة الماجستير والدكتوراه، بل وحتى من الحاصلين على درجة (الأستاذية) تسمع لهم جعجعة ولا ترى لهم طحيناً. فهم يعانون من الضمور وعدم القدرة على الاكتشاف والإبداع والإضافة في الاثنتين معاً: تخصصهم الدقيق، وثقافتهم العامة... فهم أشبه بالمنبتّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. وإنك إذا أخرجتهم من دائرة تخصصهم الدقيق باتجاه هذا الحقل المعرفي الموازي أو ذاك؛ ضاعوا وضلّوا الطرق، لأنهم لا يكادون يملكون من خرائطه شيئاً... بل إنك ـ حتى في مجال تخصصهم الدقيق هذا ـ إذا سحبت من بين أيديهم النصوص الحرفية المستمدة من المراجع والمصادر؛ فقدوا القدرة على كتابة سطرين...

كسر جدران الزنزانة، وتحرير المختصين من الاعتقال في

سراديبها الضيقة، تلك هي ـ أغلب الظن ـ المهمة الأساسية لمبدأ التكامل المعرفي ومطالب الاشتغال عليه.

أخيراً وليس آخراً، أحب أن أختم حديثي هذا عن أخطاء نشاطنا الفكري والثقافي والدعوي، بمحاضرة تحمل عنوان (حول مرجعية لمثقفي عالم الإسلام)؛ كنت قد ألقيت جانباً منها في جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ومكتب الأردن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في خريف عام (١٩٩٩م). ثم عدت إليها وأضفت عدداً من المرئيات والمقترحات... وهي تجيء مناسبةً تماماً لموضوع هذا الكتاب.





حول مرجعية لمثقفي عالم الإسلام

«محاضرة ألقيت في جمعية الدراسات والبحوث ومكتب الأردن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في خريف عام ١٩٩١م»

أيها الشيوخ والأساتذة والحضور الكرام...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

ليست محاضرة هذه التي أودّ إلقاءها، ولكنها جملة من الإثارات... والتمنيات!! فماذا لو يكون لمثقفي عالم الإسلام مرجعية، أو مركز، أو مؤسسة، أو اتحاد، للتخطيط، ولمّ الطاقات المبعثرة، وربّما المتناقضة، واتخاذ القرار المناسب في ضوء الضوابط الشرعية والمصالح العامة؟ وتحت غطاء الفقه في طبقاته العليا: الفقه المقاصدي، وفقه الموازين والمصالح المرسلة، من أجل أن تحمل ثقافتنا الإسلامية وجهاً واحداً وليس وجوهاً شتى... ومن أجل أن تتقدم للآخر برؤيتها الأصيلة المستمدة من تأسيسات هذا الدين، ورؤيته، ومقاصده؟!

والثقافة المقصودة هنا هي النشاط المعرفي في سياقه العام: فكراً وإعلاماً وأدباً وفناً، وممارسات تربوية وتعليمية ودعوية، ونشاطاً في الندوات والمؤتمرات...

لقد قدّم الإسلاميون الكثير في هذه المجالات كافة: بحثاً وتنظيراً وتأصيلاً... والمطلوب جهدٌ موازٍ من الممارسات الميدانية، التي تعرف كيف تؤسس، وكيف تخطط، وكيف تنفّذ... وكيف تكون مؤسسة فاعلة قديرة على الأداء المبرمج، من أجل حصاد أكثر غنىً على كل المستويات...

إن علينا في هذا المجال أن نتعلم من الغربيين، الذين تفوّقوا علينا ولا ريب برؤيتهم المؤسسية، وبخططهم الزمنية الخمسية أو العشرية، وبحساباتهم الدقيقة للمستقبل، وبحذرهم البالغ من الفشل، وبكيدهم ومكرهم بالخصوم...

إن القرآن الكريم يضعنا في التاريخ في مساحات واسعة منه... نعم... ولكنه يحرّرنا من شدّه في آيتين بالمفردات نفسها من سورة البقرة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

وهو طالما أدان الممارسات الجاهلية بتشبثها بالتقاليد الخاطئة للآباء والأجداد: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٢ ـ ٢٥]، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤]، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: ٧٨]، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١].

إن كتاب الله يريدنا أن نكون في قلب العصر، متطلعين بعيون فاحصة إلى المستقبل... وكذلك مضت أحاديث رسول الله ﷺ في تأكيده على إعادة صياغة الواقع واستشراف المستقبل القريب والبعيد... وفي الحالتين يريد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن نتعامل مع مطالب العصر ونستجيب لتحديات المستقبل.

والثقافة المبرمجة هي السلاح الأكثر فاعلية في ذلك، خاصة وأننا في زمن اجتمعت فيه على حين غفلة جملةٌ من التحديات متمثلة بالعولمة، والنظام العالمي الجديد ذي القطبية الأحادية، وانفجار المعلوماتية والإعلامية بتقنياتهما الأسطورية المدهشة، وبالنظريات الأكثر حداثة من مثل نظرية (صراع الحضارات) لصموئيل هنتنغتون، و (نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما... في زمن الاستعمار الجديد الذي يغزو ثقافتنا، وديننا، وثوابتنا، ويخترق علينا دورنا وغرف نومنا، دون أن يحرّك جندياً واحداً كما كان يفعل زمن الاستعمار العتيق...

فلا بد إذن قبالة هذا كله من البحث عن الممرات الممكنة للخروج من المحنة... لا بدّ من محاولات الاختراق وضرورات

تأصيل الذات، لا لكي نحمي أنفسنا فقط من الذوبان في كيان الحضارة الغربية الغالبة، وإنما لكي نتقدم بمشروعنا الإنساني الحضاري الوضيء للبشرية عبر معاناتها المبهظة، وتساقط نظمها الشمولية والرأسمالية والوجودية الواحد بعد الآخر، ووصول أديانها المحرفة إلى الطرق المسدودة...

إن الجهد الثقافي الذي يعكس للعالم حقيقة المشروع الذي كلفت هذه الأمة بحمله إلى العالم كلّه، لهو أحد الأسلحة الفاعلة في إيصال الخطاب الإسلامي إلى سمع العالم التائه... وعقله... ووجدانه...

سأتحدث في تأشيراتي هذه على خمسة من شواهد الهدر والارتجال والفوضى في حياتنا الثقافية، وأترك الشواهد الأخرى لتقديركم.

على **مستوى الإعلام** الذي امتلك منذ عقود أداة فاعلة هي (الفضائيات)، التي ترفع خطابها لملايين الناس في اللحظة الواحدة، حيث تطرح المحاضرات، وتدار البرامج الحوارية، وتقدّم القراءات الثقافية، وتعرض التحليلات الاجتماعية والسياسية...

وبسبب من **غياب المرجعية الثقافية** التي تعرف كيف تختار المتحدثين، وتبرمج لحواراتهم... يجد المشاهد نفسه بإزاء موضوعات شكوكية، ومحاورين لا حيلة لهم في الردّ على خصومهم، الأمر الذي يحدث شروخاً بدرجة أو أخرى، في قناعات المتلقي، على العكس تماماً مما يراد لحواريات كهذه، والتي إذا

أحسن توظيفها؛ فانها تعزّز اليقين، وتزيد الثوابت العقدية والفكرية عمقاً وتأصيلاً...

وثمة الجدّ المتواصل في بعض الفضائيات، فيما لا يترك أي مجال لدقائق من استرخاء المشاهد وإمتاعه وإخراجه من دائرة السأم الذي يقود إليها الجدّ الموصول... وكلنا يعرف الحكمة التي تقول: «روّحوا عن أنفسكم ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت».

هنالك أيضاً في إعلامنا الإسلامي حلقات كثيرة من **الضعف والهشاشة** في تقديم الأفلام والمسلسلات الدرامية أو النشيد الإسلامي، فيما يدفع المشاهدين إلى التحوّل إلى الفضائيات الأكثر قوة، رغم ما قد يخترقها من فساد!! لهذا كان لا بدّ من أعمال تتميز بقوتها على مستوى النصّ الإبداعي، والسيناريو، والحوار، والإخراج، والتمثيل، وسائر الأمور الفنية التكميلية، كالذي حدث على سبيل المثال في فيلمي (الرسالة) و (عمر المختار) للمخرج القدير مصطفى العقاد، واللذين لقيا في ديار الغرب إقبالاً منقطع النظير، وإعجاباً شديداً بشخصية الرسول ﷺ، وبإنسانية المجاهدين في سبيل الله، وتعاملهم العالي مع المغلوب...

هنالك أيضاً **التكرار**، وإعادة القول في موضوعات نمطية متشابهة لا جديد فيها... والطرق على مسائل بعينها مرة ومرتين وثلاثاً وعشرين مرة، فيما يدفع المشاهد إلى الهروب صوب قنوات تقدّم الجديد، لكنه جديد لا تؤمَن عواقبه بحال من الأحوال.

فلو كان هناك مرجعية، أو مركز، أو مؤسسة، تتابع دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة، ما يجري في هذه الساحة المؤثرة، وتعطي توجيهاتها المدروسة للقائمين عليها... لما حدث هذا الذي حدث، والذي يبدو أن مساحته ستزداد يوماً بعد يوم في غياب التخطيط.

على **مستوى الندوات والمؤتمرات الإسلامية**، التي يشهدها عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، يلحظ المرء تزايداً في نسبة هذه الندوات والمؤتمرات... تزايداً بمعدل متواليات هندسية وليست حسابية... فالاثنان يصيران أربعة، وهذه تصبح ثمانية... وهكذا تدور الطاحونة لكي لا تقدّم في نهاية الأمر، وقد استهلك القائمون عليها، والمشاركون فيها، سوى الفوضى والتكرار والهدر المادي والنفسي والأدبي، والبحوث التي لا علاقة لها بموضوع الندوة أو المؤتمر، وبتوصيات لا يعمل بها، وإنما توضع على الرفوف بمجرد مغادرة المدعوين، لكي ما يلبث أن يلفّها الغبار...

فلو كان هناك مرجعية أو مؤسسة مركزية للتخطيط الثقافي، لما حدث هذا الذي حدث، والذي يتدفق كالسيل، رغم ضعفه وعواره... ولمنع التكرار... واستُبعدت البحوث التي لا علاقة لها، واقتُصد في النفقات، فبدلاً من إقامة عشر ندوات ومؤتمرات، أو عشرين، حول الموضوع الواحد في السنة الواحدة، يمكن أن يختصر هذا كلّه إلى ندوة أو مؤتمر واحد، لكي يُترك المجال للموضوعات الأخرى التي لا تقل أهمية.

أنا ـ شخصياً ـ من خلال خبرتي المتواضعة، تلقيت عبر

ثلاثين سنة ما يقرب من أربعمائة دعوة للمشاركة في ندوة أو مؤتمر، وبطبيعة الحال لم أنفّذ منها سوى العشر، وأضطر للاعتذار عن تسعة أعشار!! لأن تلبية كل دعوة، كما يفعل العديد من عشاق الندوات والمؤتمرات، يستنزف الإنسان فكرياً وجسدياً ونفسياً، ويجعله لا يقدّم سوى بحوث لا تصلح لأن يستهلك فيها الورق... فكيف بتكاليف الحضور والمشاركة على مستوى النقل، والإقامة، والتنقلات الداخلية، والإطعام؟!

المعضلة الثالثة التي نشهدها صباح مساء، في غياب المؤسسة الثقافية المركزية، هي تلك التي تشهدها **دور النشر الإسلامية**، والمؤسسات الثقافية، والدوريات، من الفوضى والتكرار، والهدر، وضعف الخطاب الإسلامي عبر الكتب المنشورة، والمتدفقة كالسيل سنة بعد أخرى... ومن خلال الدوريات الإسلامية التي تتوالد بطريقة سرطانية، لكنها لا تكاد تقدّم، إلا في حالات نادرة، الغذاء المناسب للمثقف المسلم المعاصر.

فلو كان هنالك مؤسسة مركزية تحال إليها قوائم الأعمال المراد نشرها، والبحوث المعروضة على المجلات والدوريات الإسلامية، لألغت الكمّ الكبير من تلك الأعمال والبحوث، واقتصرت على تلك التي تتجاوز التكرار والضعف والعقم الفكري... صوب الموضوعات المبتكرة الجديدة، والبحوث المتألقة المبدعة، ولوفّرت على الأمة الإسلامية الكثير من الجهد والمال، اللذين يمكن أن يوجّها إلى أهدافهما الأكثر منفعة وجدوى.

فإذا جئنا إلى **الحلقات الأكاديمية والدراسية**، فإننا سنجد في غياب المرجعية الثقافية، العجب العجاب، بدءاً من إشكاليات الابتعاث غير المبرمج والمدروس إلى ديار الغرب، حيث يتعرض معظم المبتعثين إلى هناك للضياع الأخلاقي والنفسي والفكري، ويعودون إلى ديارهم لا لكي يبنوا عقول الأجيال التي ستتربى على أيديهم، وتنهل من علمهم، وإنما لكي يهدموا ويشككوا، ويقودوا طلبتهم هم الآخرين إلى الضياع، بسبب ما تلقوه هناك من معارف إنسانية، فكت ارتباطها بالوحي وبأسباب السماء، وانحازت إلى العلمانية والمادية والإلحاد.

فلو كانت هنالك مرجعية ثقافية، لما حدث هذا الذي حدث، ولا يزال... ولمُحض الابتعاث للتخصص في ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية، أسوة بما كان يفعله اليابانيون، والذي قاد بلدهم إلى نهضته المدهشة بعد الخراب الذي لحقه من جراء الحرب الثانية... ولأرغم أولئك الذين يسعون للتخصص في مجال العلوم الإنسانية والإسلامية، على تلقي معرفتهم من جامعاتهم العربية والإسلامية نفسها... بدلاً من أن نرمي بهم إلى المجهول!!

وثمة ضرورات التخطيط في **إشكالية توزيع خريجي الإعداديات على الجامعات**، لكي لا يتجه معظمهم إلى التخصصات التي تضمن مستقبلهم المعيشي، وتدرّ عليهم ربحاً أكثر، بينما تحرم التخصصات الأخرى من تلقي الطلبة الذين يعينونها على الاستمرار في أداء رسالتها...

صحيح أن توجيهاً كهذا يقع على عاتق الآباء، فضلاً عن رغبات الأبناء أنفسهم. ولكن ماذا لو دخل طرف ثالث كالمرجعية الثقافية لتحقيق التوازن الضائع والمطلوب؟!

هنالك أيضاً تلك **القطيعة المحزنة بين معارف الوحي والعلوم الإنسانية**، التي انسحبت بتأثيرات الثقافة الغربية صوب العلمانية والإلحاد، وضرورة إعادتها إلى رحمها الحقيقي في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والتأسيسات الفقهية والفكرية الإسلامية الخصبة، من أجل تخريج أجيال تعكس في تصوّرها وسلوكها ومعرفتها، الرؤية الإسلامية للكون والحياة والإنسان والوجود والمصير...

ولحسن الحظ فإن هذه المهمة قد تولتها مؤسسة مهمة، كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومضت فيها أشواطاً كبيرة على مستوى التنظير والتطبيق فيما يسمى بإسلامية المعرفة، أو التأصيل الإسلامي للمعرفة.

وأحب أن أقف قليلاً عند معضلة أخرى لا تقل أهمية عما سبقها، تلك هي **معضلة التعليم** في مستوياته كافة: الأوّلية، والمتوسطة، والإعدادية، والجامعية، والدراسات العليا...

إذا كان معظم المعلمين والمدرّسين والأساتذة على هذا القدر من السوء في تخصصهم، وثقافتهم، وضعف شخصياتهم؛ فكيف يرجى منهم أن يخرّجوا طلبة متميزين؟

وإذا كان معظم الطلبة أنفسهم، في المراحل الدراسية كافة، على هذا القدر من السوء في تضخّل ثقافتهم، ولا أباليتهم،

وسلوكهم الملتوي؛ فكيف يرجى إصلاح العملية التربوية ـ التعليمية؟...

وإذا كانت المناهج الدراسية على هذا القدر من الاختزال، وطرائق التدريس البالية، التي تخلو من أية رغبة جادة في «الإبداع»... وبيئة الدراسة على هذا القدر من التدافع والضيق، فكيف يرجى للعملية التربوية ـ التعليمية، أن تخرج من مأزقها القاتل، الذي يخرّج ـ كالسرطان ـ أجيالاً متزايدة من الأميين، أو في أحسن الأحوال، أنصاف المتعلمين، الذين لا يمكن بحال من الأحوال أن يقدّموا لأوطانهم وأمتهم شيئاً ذا بال؟

إنها الحلقة المفرغة التي تأسر كل العاملين فيها؛ طلبة، ومدرّسين، ومناهج، وإدارة... فالأستاذ شبه الأمي يخرّج مدرّسين لا يملكون شيئاً من الثقافة التخصصية والعامة، وهؤلاء سيتولون تخريج طلبة هم أصفار على الشمال... وهكذا تدور مطحنة التخلّف والانهيار التعليمي التربوي، الذي نراه بأم أعيننا في المدارس الابتدائية والمتوسطة والإعدادية... وفي سوح الجامعات... وحتى في هذه الأخيرة، قد تمر السنة والسنتان والأستاذ الجامعي لا يقرأ كتاباً واحداً، ولا يفكر بإنجاز بحث واحد... وحتى إذا كتبوا بحثاً فبمجرد إلقاء نظرة عابرة عليه يكشف عن تضحّله، وعواره، على مستوى لغة التعبير، والمنهج، والموضوع والتوثيق.

وفي اعتقادي أن نقطة الانطلاق للحلّ المطلوب، والبداية العملية الممكنة، تستدعي إحياء تقاليد المطالعة الخارجية، أي

القراءة الجادة في الكتاب... لتنمية ثقافة المعلم والمدرس والأستاذ والطالب معاً... فبدون الفضاء المعرفي الواسع لهؤلاء لا يمكن أن يكونوا شيئاً، أو أن يضيفوا حلقة ذات غناء إلى حياتنا الاجتماعية، وهذا لن يتشكل إلا بالعودة إلى تقاليد المطالعة الجادة في الكتب.

قبل أربعين أو خمسين سنة، كان الجميع يقرؤون، الطالب والمعلم والمدرّس والأستاذ... وكانت القراءة الخارجية خبزهم اليومي، يتابعونها صباح مساء، لا يكلّون ولا يملّون، فيشكلون بذلك فضاءهم المعرفي، ويبنون شخصياتهم المؤثرة.

وعلى مدى سنوات طويلة من عملي التعليمي كنت أقول لطلبتي أن عشرين سنة من الاعتماد على المقررات التدريسية في المدارس والجامعات، وعشرين سنة أخرى من الجلوس أمام الشاشة التلفازية أو الكمبيوتر أو الإنترنيت... لن تخرّج مفكراً ولا باحثاً ولا مؤلفاً ولا أديباً ولا مبدعاً... ولا معلماً أو مدرّساً أو أستاذاً مؤثراً... وأن الذي يخرّج هؤلاء هو (الكتاب)... فهو المدرسة الأم التي تعرف كيف تعين العملية التربوية ـ التعليمية على المضي إلى أهدافها المتوخاة.

ومنذ ثلاثين سنة أو أربعين كانت المكتبات العامة أشبه بخلايا النحل، التي تعجّ بالقراء والمطالعين، وكانت الأجيال تداوم فيها عبر مرحلتين: صباحية ومسائية... ثم تعود ليلاً إلى الدار لكي تواصل القراءة حتى ساعة متأخرة من الليل.

وأية قراءة كانت تلك التي يتم الحديث عنها؟ إنها القراءة المنتجة وليست الاستهلاكية... القراءة التي تتشرب مفاهيم الكتاب وتدخل في جدل معه، والتي تنوّع في مطالعاتها في شتى مناحي المعرفة... ذلك أن التنوّع يعدّ ضرورة من ضرورات تكوين الشخصية الفاعلة المؤثرة. فالاقتصار على القراءة في حقل التخصّص سيجمّد الفكر، ولا يعينه على الحركة المطلوبة في سنن الكتابة والإبداع.

ونحن أمة (اقرأ) التي تنزل كتابها العظيم في كلماته الأولى بمفردات القراءة والعلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]... ولكننا للأسف الشديد لم نعد نقرأ... وهنالك إحصائية معروفة تقول أن المواطن الغربي يقرأ في السنة الواحدة مائتي ساعة والمواطن العربي خمس دقائق فقط!!

وجاء في إحصاءات منظمة اليونيسكو، أن متوسط القراءة الحرة للطفل العربي لا يتجاوز الدقائق الست في السنة، مقابل (١٢٠٠٠) دقيقة للطفل في العالم الغربي. وفي دراسة دولية أخيرة حول معدلات القراءة في العالم، أوضحت أن معدل قراءة المواطن العربي سنوياً ربع صفحة، بينما معدل قراءة الأمريكي (١١) كتاباً. وتصدر الدول العربية سنوياً ما يعادل كتاباً واحداً لكل (٣٠٠) ألف شخص. بينما تصدر دول الغرب، وخاصة أمريكا

حوالي (٨٥) ألف كتاب سنوياً. وتنتج إسرائيل وحدها (٢٥ ـ ٣٠) ألف كتاب سنوياً وهو ما يعادل إنتاج الدول العربية مجتمعة.

وتكشف أحدث الإحصائيات أن الأوربي يقرأ بمعدل (٣٥) كتابا في السنة، والإسرائيلي (٤٠) كتاباً في السنة، أما العرب فإن (٨٠) شخصاً يقرؤون كتاباً واحداً في السنة. ولكي تتم قراءة (٣٥) كتاباً باللغة العربية فإننا نحتاج (٢٨٠٠) عربياً. ولكي تتم قراءة (٤٠) كتاباً فإننا نحتاج إلى (٣٢٠٠) عربياً. والحصيلة أن ثقافة أوربي واحد = ثقافة (٢٨٠٠) عربي، وثقافة إسرائيلي واحد = ثقافة (٣٢٠٠) عربي.

ولطالما سألت طلبتي في الدراسات العليا عن عدد الكتب التي يقرؤونها في العام الواحد، فإذا بمعظمهم لم يقرؤوا كتاباً واحداً... وهم بصدد الحصول على الدكتوراه... وكنت أقول لهم: صحيح أنكم ستحصلون عليها، ولكنكم ستتخرجون أميين، وسينكشف عواركم أمام طلبتكم، وعبر الندوات والمؤتمرات التي ستدعون إليها.

فأي مأساة هذه وأنت تجد حتى أولئك الذين يحملون درجة الأستاذية لا يقرؤون كتاباً واحداً في السنة... فماذا سيقدمون لطلبتهم من علم ومعرفة؟!.. وبم ستكون قدرتهم على تخريج أجيال من المبدعين؟ وإذا كان هذا حال الأستاذ الجامعي فكيف سيكون حال المدرّس والمعلم والطالب؟!

وثمة أخيراً وليس آخراً ضرورة حضور المرجعية للتخطيط لما

يسمى بملتقيات الحوار: الإسلامي مع الإسلامي، والإسلامي مع الآخر... من أجل ألّا ينفلت الزمام، ويتم تجاوز الثوابت والمسلّمات، بحجة كسب الآخر، أو التقرّب إليه... وحيث يكون الوقوع في الخطأ الذي قد يقود إلى الحرام... ذلك أن النيّات الحسنة وحدها لا تكفي؛ ما لم تستهدِ بالضوابط الشرعية التي تمنعها عن الانزلاق... ها هنا حيث يصير دخول المرجعية الثقافية توجيهاً وترشيداً من أجل الوصول بالمحاور المسلم إلى برّ الأمان...

وما بين «صراع الحضارات» لصموئيل هنتنكتن الذي يؤكد حضور التاريخ، و «نهاية التاريخ» لفرنسيس فوكوياما الذي يلغي «التاريخ»؛ هوّة واسعة وزاوية منفرجة قد تبلغ (١٨٠) درجة، وتلك هي إحدى أزمات العقل الغربي، سواء في تنظيراته، أم عقائده أم سياساته... إنه على ما يبدو معتقل في حتمية «إما هذا أو ذاك»... إما الصراع وإما الحوار... بقدر تعلّق الأمر بالموضوع الذي بين أيدينا... بينما يكسر الإسلام هذه المقولة الخاطئة ويستبدلها بمبدأ «هذا وذاك»... الصراع والحوار معاً... وها نحن قد خبرنا إمكانية حضور الفعاليتين معاً، سواء في تأسيساتنا العقدية والتشريعية، أم في تاريخنا على امتداده الطويل.

إنها في بدء التحليل ونهايته «الوسطية»، التي يتميز بها هذا الدين، والتي يمكن أن تعتمد معياراً أو منهجاً نتعامل بموجبه مع

سائر الظواهر والخبرات: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسطية هنا ليست موقعاً جغرافياً، ولكنها موقف عقدي، واستراتيجية عمل، ورؤية نافذة لموقع الإنسان المؤمن في الكون والعالم... إنها القدرة الدائمة على التحقّق بالتوازن، وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال. ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس، لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور.

إن الغربيين وهم يحاوروننا أو يصطرعون معنا؛ لن يكون بمقدورهم أن يخرجوا من جلودهم... أن يتجاوزوا التأثيرات الدينية والثقافية... أن يناقضوا مطالبهم السياسية والاستراتيجية... أن يتخلوا عن هيمنتهم، ومصالحهم الاقتصادية... بل، وهذا هو الأهم، أن يفتحوا منافذ وثغرات في بنيانهم الحضاري ذي المركزية الأوربية، والمكونات النصرانية، والموجهات اليهودية، بموازاة الرؤية العلمانية التي قد تبلغ في كثير من الأحيان حافات المادية التي ترفض الغيب وتتنكر لله...

وأخشى ما يخشاه المرء أن تنزلق الدعوة إلى (الحوار) بأصحابها صوب إحدى اثنتين:

فأما أولاهما، فواضحة بينة، وهي التنازل بدرجة أو أخرى عن بعض ثوابتنا وخصوصياتنا التي تميزنا عن أبناء الديانات

الأخرى، تحت ذريعة التقريب وتذويب الحواجز الدينية بين الأمم والشعوب.

وأما ثانيتهما، فهي أشد خفاء وأبعد عن التكشف، وهي تذكرنا بتلك المحاولات (المشبوهة) التي أرادت بدعوتها إلى (التسوية) بين الأديان، أو في الأقل إضعاف الحواجز القائمة بينها، الإجهاز على الخصوصية الإسلامية من جهة، وإعطاء المبرر والشرعية لاستمرارية الأديان المحرفة، وربما الاعتراف بمعطياتها، أو بجانب منها في الأقل، فيما قد يتناقض ابتداءً مع قاعدة هذا الدين، القائم على التوحيد المطلق، الذي لا تشوبه أية شائبة من شرك أو تعددية أو وثنية.

إن قنوات التواصل مع الآخر كثيرة جداً... ومن خلالها يمكن العبور إلى الآخر، والتحاور معه، والوصول ـ ربما ـ إلى نتائج في غاية الأهمية، لكن ذلك كله يتحتم ألا يكون على حساب الثوابت التي لا مهادنة فيها ولا مجاملة.

هذه ـ أيها الإخوة ـ مجرّد تأشيرات سريعة على موضوع يمكن أن يقال فيه الكثير...

والآن... قد يدور في أذهانكم سؤال ملح حول إمكانيات العمل والتنفيذ قبالة التحديات الجمّة التي تقف لمشروع كهذا بالمرصاد.

والحق أن محاولة كهذه لا تتجاوز أحد احتمالين هما: الإمكان، والاستحالة... ففي الأولى يمكن تقديم المقترحات والتأسيسات من أجل التفكير الجاد للبدء بالعمل... وفي الثانية

لا بدّ من دراسة العقبات والتحديات، وتحديدها، ووضع صيغ التغلّب عليها.

في الحالة الأولى يمكن:

أولاً: البدء بتشكيل كونترول إسلامي، أو هيئة استشارية عليا، أو مرجعية مركزية من كبار الفقهاء والمفكرين والمختصين، تضع البرامج وتحدّد الأهداف.

وثانياً: القيام بحملة اتصالات وتنسيق شاملة بين الحلقات المؤسسية الناشطة على مدى عالم الإسلام كلّه، لإقناعها بالانتماء إلى المشروع، أو على الأقل توحيد طاقاتها مع همومه وأهدافه...

وثالثاً: اعتماد دار نشر كبيرة، أو معهد يقام في بيئة محايدة لممارسة العمل، من أجل تجنبه محاولات الاحتواء السلطوية وإفراغه من مضمونه، فيما قد ينحرف به عن أهدافه المرسومة.

أما في الحالة الثانية، فهنالك احتمالات شبه مؤكدة لارتطام المؤسسة بالسلطات المحلية والضغوط الخارجية، فيما قد يقودها إلى العزلة، أو الانحراف، أو الخروج من التاريخ، كما حدث ويحدث للعديد من المؤسسات الإسلامية الفاعلة في الديار العربية والإسلامية...

ولمجابهة ذلك لا بدّ من العمل خارج الأطر السياسية المباشرة، والانصراف كلية إلى الهمّ الثقافي العام... فضلاً عن البحث عن البيئة والمكان المناسب، أو ما يسمى بالجزر الحيادية التي لا تسعى للاحتواء أو الابتزاز أو التوظيف لمصالحها على

حساب مطالب المشروع... وهذه مسألة ليست بالصعبة أو المستحيلة، حتى لو اقتضى الأمر جعل مركز المؤسسة في بلد غربي يمنح مساحة واسعة من حرية الفكر والعمل.

إن محاولات عديدة، اقتصادية واجتماعية وثقافية، قادها انتماؤها للمشروع الإسلامي إلى الارتطام بالسلطات، ومن ثم التفكك والفشل... ولكن ذلك لن يكون قدرنا الأخير... ذلك أن التحديات المتواصلة هي التي تصنع الاستجابات الناجحة... كما أن إقامة مؤسسة كهذه يعدّ ضرورة ملزمة يتحملها كل مسلم جاد في هذا العالم، وهي ـ إذن ـ ليست خياراً مما يُتساهل فيه.

إن الطريق ـ أيها الإخوة الأحبة ـ طويل... والمهم هو إرادة التغيير... ورحلة الألف ميل ـ كما يقول المثل ـ تبدأ بخطوة واحدة[١].



---

(١) بعد هذا الطرح بسنوات، وبعيداً عنه، قيّض للأمة الإسلامية أن تشهد قيام مؤسسة كبرى هي (الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين) التي يتزعمها كبير فقهاء الأمة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي (حفظه الله)، فأصبحت المحاضرة أعلاه مجرد قضية تاريخية صرفة، وهرع صاحبها للانتماء إلى الاتحاد المذكور.

الخاتمة

إننا أمةٌ أريد لها أن تكون في سقف العالم، مكانةً وعطاءً وإبداعاً... وكانت بؤرة المعطيات القرآنية والنبوية تصبّ في هذا الاتجاه، عبر مشروعها الحضاري، الذي قدّر له أن يكون سيد العالم لعدة قرون... عالم مسخّر لنا، نحن الذين استُخلفنا عليه، من أجل أن نبنيه ونعمره لكي يكون بيئة صالحة لعبادة الله ﷻ، ليس بالمفهوم الشعائري والطقوسي، وإنما بالمفهوم الحضاري، حيث يصير كل فعل وإنجاز يُبتغى به وجه الله ﷻ عبادة يتقرب بها العاملون إليه...

لقد وضعنا هذا الدين في قلب الفعل الحضاري من خلال مثلث التسخير، والاستخلاف، والاستعمار (بدلالته اللغوية وليست الاصطلاحية) ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]... ودعانا في أكثر من سورة إلى أن ننقب في الأرض، نلتحم بفيزيائها، نستخرج طاقاتها المذخورة للتحقق بالقوة التي نحمي بها أنفسنا، وبالتقدم العلمي الذي نيسّر به أمور حياتنا على الأرض...

ثم ما لبثت الأعوام والقرون أن كرّت، فإذا بعقولنا وأيدينا

ترتخي عن الإمساك جيداً بمطالب هذا المشروع، لأسباب ليس هذا مكان استعراضها[(١)] . فتركنا بذلك قيادة العالم للآخر الذي عرف، ولا يزال، كيف يسومنا سوء العذاب، ويرغمنا على البقاء في دائرة التخلّف... ولم يكن هذا ليحدث لولا ما صنعته أيدينا من سوء عبر قرون انكسارنا الحضاري... والقرآن الكريم يعلنها بصراحة ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وهذا الذي استعرضه هذا الكتاب الموجز هو من جملة السوء الذي صنعته أيدينا ولا تزال... فما لم نتداع لتشخيصه وإيجاد البدائل الممكنة للخروج من بقعه السوداء... فلن يرتجى أن يكون لنا مكان في خرائط العالم...

وسبل الخروج ليست مقفلة، ولا مستحيلة... فقط إذا عرفنا كيف نستعيد ثقتنا بأنفسنا، وعقيدتنا، وتاريخنا، ومشروعنا الحضاري... وأننا مكلفون بإنقاذ الإنسان في هذا العالم، والشهادة على البشرية في مسيرها ومصيرها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]... أن نتحصن بالاستعلاء المدعم بقوة العقل والروح على سفاسف الحضارة الغربية بانكساراتها المتعاقبة، بفسادها الكبير، بعبثيتها، بعدميتها، بضياعها وتخبطها... رغم كل ما تملكه من قدرات تقنية

---

(١) ينظر الفصل الثالث من كتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) للوقوف عند تلك الأسباب.

وعلمية وخدمية... ولكن يعوزها الأبعاد الدينية والأخلاقية والإنسانية التي تمّ اغتيالها منذ زمن بعيد... وها هم كبار علمائها ومفكريها وفلاسفتها وأدبائها وإعلامييها يدقّون أجراس النذير، ويؤكدون الدور القادم للمشروع الحضاري الإسلامي، من أجل المشاركة في إعادة صياغة المستقبل البشري، بما يعيد إليه توازنه المفقود...

إن علينا أن نعرف جيداً كيف نستجيب لمطالب اللحظة التاريخية، وأن يكون خطابنا على قدر كبير من وضوح الرؤية، وتوظيف الطاقات المناسبة في حدودها القصوى وفي مكانها المناسب... وعلينا أن نتحلى بالمزيد من الروح الشورية والسماحة والانفتاح، والارتباط أكثر بمطالب العصر... أن نملك ثقافة شمولية تنطوي على الفقه الشرعي بأعلى وتائره، والفقه الحضاري، والمعارف الإنسانية... أن نحسن توظيف المؤسسات في طاقاتها القصوى: المدرسة، الجامعة، المسجد، البيت، الإعلام، النشاط الاقتصادي، مؤسسة الوقف والزكاة والصدقات... أن نستخدم كل صيغ الخطاب الإعلامي: الدعوي، الفكري، العملي، الروحي، الفني، والأدبي... أن نعمل وفق مبدأ (**كلٌّ ميسّر لما خلق له**)، وضرورة وضع الأشخاص في موضعهم الحق، دون أن نكلفهم ما يخرج عن طاقاتهم البشرية... أن نتجاوز جنوح الشخصية صوب الأحادية وضرورة التحقق بالتوازن في مكوّناتها العقلية والروحية والجسدية والوجدانية والحسّية... أن نعرف كيف نوظف الزمن إلى آخر

المدى، وعدم هدر الوقت أو تعطيل الطاقات الفاعلة... أن نتجاوز الإلحاح في الجدل العقيم الذي يقود إلى تباعد الأطراف لا إلى لقائها والتقارب بينها... وأن نمدّ الجسور إلى الآخرين بمجرد اكتشاف نقطة لقاء ما، وتجاوز العزلة والقطيعة... أن نميّز بين المتحدثين باسم الإسلام، فنعطي كلّاً منهم المساحة التي يعرف كيف يتحرك فيها، ويؤثر على الآخرين ما بين عالم ومفكر وفقيه وداعية وخطيب ومدرّس وشيخ وقائد وواعظ ومثقف وفنان وأديب...

وأخيراً وليس آخراً، أن نحرّر أنفسنا من تسلّط الإحساس بالتأثم في كل خطوة نمارسها أو نحاول الإقدام عليها، وأن نتجاوز حالة التشنج في التعامل مع المفردات الحياتية كافة، ولننظر دائماً إلى الجانب المليء بالماء من القدح لا إلى جانبه الفارغ... وأن نتذكر دائماً أن الحلال في هذا الدين هو القاعدة، وأن الحرام هو الاستثناء، وأن الأمور مطلقة ما لم يرد نصّ بتقييدها... وأن نضع نصب أعيننا أحاديث الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) التي تدعو إلى التساهل والتيسير، وتكرّه في التشدّد والتنطع والرياء: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق...**»، «**هلك المتنطعون**»، «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة إلحاحهم في الجدل**»... وقبل هذا... أن نتمعن جيداً فيما تريد آيات القرآن الكريم أن تقوله لنا بهذا الخصوص: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ

مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ﴾ [طـــه: ٨١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المـائـدة: ٨٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [الـتـحـريـم: ١]، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عـمـران: ٥٠]، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأعـراف: ١٥٧]، ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المـائـدة: ٥]، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [الـنـحـل: ١١٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الـبـقـرة: ١٦٨]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ﴾ [يـونـس: ٥٩]، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنـعـام: ١٤٣ ـ ١٤٥]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٢].

لقوم يعلمون... فلو أننا أصغينا جيداً لهذا الخطاب القرآني الواضح المبين... لو أننا أعملنا عقولنا وجوارحنا فيما قدّمه لنا من علم يقيني في التعامل مع مطالب الحياة الدنيا... لما كان هذا الذي تحدّث عنه الكتاب المتواضع الذي يجده القارئ بين يديه!!



قائمة بالأعمال الكاملة للأستاذ الدكتور

عماد الدين خليل

وفق تصنيفها الموضوعي

أولاً: الأعمال التاريخية

أ ـ محور المنهج والفلسفة:

١ ـ التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين - بيروت).

٢ ـ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٣ ـ ابن خلدون إسلامياً (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٤ ـ في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٥ ـ المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٦ ـ دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي ـ عمان).

٧ ـ المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم ـ بيروت).

٨ ـ التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (قيد النشر).

٩ ـ مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

١٠ ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

ب ـ محور السيرة والتراجم:

١١ ـ دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس ـ بيروت).

١٢ ـ كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

١٣ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار القلم ـ بيروت).

ج ـ محور البحوث والدراسات:

١٦ ـ دراسات تاريخية (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

١٩ ـ الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعة واحدة) (دار الفكر ـ دمشق).

٢٠ ـ خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢١ ـ محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (قيد النشر).

د ـ محور قضايا في التاريخ المعاصر:

٢٢ ـ ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٣ ـ لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٤ ـ أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ مقالات إسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ أولى ملاحم القرن (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

٢٨ ـ مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعة واحدة) (دار الفكر ـ دمشق).

٢٩ ـ أمريكا مرةً أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ثانياً: الأعمال الفكرية

أ ـ محور المنظور الإسلامي للمعرفة:

١ ـ أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ب ـ محور المنظور الغربي للإسلام:

٦ ـ قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧ ـ القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٨ ـ المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٩ ـ الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٠ ـ نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس ـ بيروت).

١١ ـ غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

ج ـ محور البحوث والدراسات:

١٢ ـ مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

١٣ ـ حوار في المعمار الكوني: وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٦ ـ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

١٧ ـ كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الله أو الطاغوت: مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

١٩ ـ رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (قيد النشر).

٢٠ ـ محاضرات إسلامية (قيد النشر).

٢١ ـ أخطاء في حياتنا الإسلامية (قيد النشر).

٢٢ ـ دراسات قرآنية (قيد النشر).

د ـ محور المقالات الإسلامية:

٢٣ ـ آفاق قرآنية (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢٤ ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ في الرؤية الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٢٧ ـ من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٢٨ ـ العالم ينتظر البديل (قيد النشر).

٢٩ ـ آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).

٣٠ ـ أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

ثالثاً: الأعمال الأدبية

أ ـ محور الدراسات الأدبية والفنية:

١ ـ الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر ـ القاهرة).

ب ـ محور التنظير:

٥ ـ في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧ ـ حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨ ـ متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٩ ـ من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

ج ـ محور النقد التطبيقي:

١٠ ـ محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١١ ـ في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٢ ـ في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

د ـ محور الإبداع:

ـ المسرحيات:

١٣ ـ المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ المغول (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٦ ـ الهمّ الكبير (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٩ ـ خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٠ ـ العبور (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ـ الروايات:

٢١ ـ الإعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٢ ـ السيف والكلمة (طبعة واحدة) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

٢٣ ـ مذكرات جندي في جيش الرسول (ﷺ) (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

ـ القصص:

٢٤ ـ كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ـ الشعر:

٢٦ ـ جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

- أدب الرحلات:

٢٨ ـ من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

- أدب الحوار:

٢٩ ـ ريبورتاج: حوار في الهموم الإسلامية (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

٣٠ ـ الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

٣١ ـ لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

- السيرة الذاتية:

٣٢ ـ السيرة الذاتية:

لا إله إلا أنت (سيرة ذاتية) (قيد النشر).

٣٣ ـ من مذكرات طالب جامعي (قيد النشر).



فهرس الموضوعات



أخطاء في حياتنا الإسلامية

يقول المثل: (إذا كان بيتك من زجاج فلا ترم الناس بالحجارة) ونحن الذين دعانا الله ورسوله ﷺ لأن نسكن بيتاً من ذهبٍ وماسٍ، تحولنا بسوء أفعالنا إلى بيوتٍ من زجاج، كثيرة الهشاشة، سريعة الكسر، نريد أن نشهر الحرب على الآخر، ونقذف بيوته بالحجارة، معتقدين أننا سنخرج من المعركة منتصرين ! رغم أن الآخر يصيبنا يوميًا بأكثر من مقتل، ويخترق علينا أمننا الذاتي في بيوتنا، وبسهولة بالغة، لأنها من زجاج !

المعادلة غير متكافئة على الإطلاق، وليس الأمر بالأماني والأحلام، فإن من يعمل سوءًا يجزبه كما أراد كتاب الله أن يعلمنا: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [5 ، سورة النساء]

لقد كانت بيوتنا يوماً من أكثر البيوت إحكاما وتناظراً وجمالاً ... ولكن سلوكنا ... نفوسنا ... انفصالنا عن مطالب عقيدتنا قادنا إلى هذا الذي نعاني منه الآن من أخطاء في السياقات التعبدية والاجتماعية والفكرية والثقافية والدعوية ... فلابد إذن من تطهير بيوتنا وتحصينها وتجميلها، قبل أن نبدأ بدعوة الآخرين.



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com


ISBN 978-614-415-307-9
9 786144 153079